

شِعْرٌ

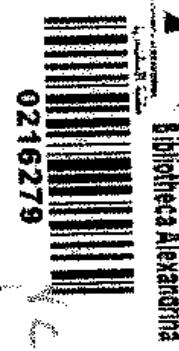
الصَّوْفَيْرِ الْمُجَلَّوْنَ

تأليف
د. يوسف زيدان

طبعة ثانية مزبدة ومنقعة

دار الجيتة

بيروت



Bibliotheca Alexandrina

سُشْعَرَاءُ
الصَّوْفَيَّةُ الْجَبَلُونُ

تأليف
د. يوسف زيدان

قليل الحيلة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الحيل
طبعة ثانية مزينة و منقحة
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الإهداء

إلى التجلّي الآخر لجوهر الذات
الصديق الدكتور
رمضان بسطاويسي ..

يوسف زيدان

مقدمة

التصوف، هو أعمق التجارب الدينية وأكثرها انطلاقاً في العالم اللانهائي الممتد من عالم المحسوسات إلى فضاء الحضرة الإلهية. والتعبير عن التجربة الصوفية أمرٌ عسير، فاللغة التي يتداولها الناس، لا تفي بتصوير الأحوال والمقامات التي يمرُّ بها الصوفي، في عروجه إلى الله.. من هنا، لجأ الصوفية للتعبير الشعري، استفادةً بما يحمله الشعر من طاقةٍ إيحائية وثوبٍ فَضْفاضٍ يتسع بعض الشيء لمعاني التصوف الهائلة. ومن هنا، اعتقدتُ دوماً أن التصوف يُدرك على نحوٍ أفضل ، من خلال شعر المتصوفة؛ الذي هو أنساب طرائق التعبير اللغوي عند القوم.

والملاحظ، أنه عند ذكر الشعر الصوفي، لا يتتصدر إلى الأذهان إلا ابن الفارض .. وأحياناً، الحلاج وابن عربي ! وذلك يعكس ظلمنا للعديد من شعراء الصوفية الذين لا تقل مكانتهم عن هؤلاء المشهورين. ولذا، جاءت فكرة هذا الكتاب، كمحاولة للتعریف بأولئك المجهولين من شعراء الصوفية.

ولما سبق، فهذا الكتاب لن يتناول شعراء الصوفية الذين نالت أشعارهم شهرةً، وطبعت دواوينهم - محققةً أو غير محققة - وهؤلاء هم: الحلاج، الشبلبي، الجيلاني، ابن الفارض، ابن عربي، التلمساني،

النابليسي .. فقد رأينا أن دواوينهم المنشورة تكفي لمعرفتهم، وتأكد شهرة أشعارهم.

وفي الطبعة الأولى من هذا الكتاب، توقفنا عند عشرة من شعراء الصوفية المجهولين. ثم أضفنا في هذه الطبعة أربع شخصيات (السهروردي - أبو مدين - ابن زقاعة - أبو الوفا الشرقاوي) وجعلنا هذه الطبعة المزيفة، منقحةً مما ورد في الطبعة الأولى، ومزودةً بذكر البحور الشعرية، ومضافاً إليها المزيد من التعليقات.

.. وإذا كان الشعر الصوفي من شأنه أن يفتح باباً للدخول إلى عالم مشحون بالرؤى الرائفة المفعمة بالدلائل، فإنه - من جهة أخرى - يمتلك، بما لا حصر له من الرموز والمصطلحات الصوفية التي لا يتعارف على مدلولها، إلا منْ كانت له معرفةً بهذا اللون من الأدب. ولذلك، حاولنا قدر الطاقة أن نشير إلى دلالة الرموز التي ترسد في الأبيات، سواءً في معرض تقديمها، أو في تلك التعريفات الموجزة التي وضعناها في هوامش الصفحات .. دون الإكثار، حتى تشرك مساحة للقاريء، يتوجه فيها بذوقه الخاص نحو دلالة الأبيات ..

وبعد .. فإنني أرجو أن يسمح هذا العمل المتواضع، في دفع القراء والمثقفين نحو هذا اللون المهجور من تراثنا الأدبي والروحي، بدلاً من تلك الأنماط الأدبية التي استهلكت بمرور الأيام، وبمرور الأصوات الباهرة عليها. وإنني على ثقةٍ من أن التعرُّف على شعر الصوفية وأدابهم، سوف يفتح للأدب العربي المعاصر، آفاقاً جديدةً ..

دكتور / يوسف زيدان

والله الموفق.

سَمْنُونُ الْمُحَبِّ

(المتوفى ٢٩٧ هجرية)

فَإِنْ شِئْتَ وَأَصِلْنِي وَإِنْ شِئْتَ لَا تَحْلِعْ
[الطوبل]

المحبة عند الصوفية طريق للوصول إلى الله تعالى ، وقد وردت في الكتاب العزيز آيات كثيرة عن محبة الله لعباده ومحبة العبد لربه .. وكان لا بد للصوفية من التوقف أمام المحبة وتعزيق أغوارها ، فوصلوا إلى متنهى المتنهي فيها . لكن واحداً بعينه من الصوفية ، هو الذي تخصص في المحبة ، واختص باسم المحب .. هذا الواحد هو « سمنون » .

تقول المصادر الصوفية إنه : أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص ، كان معاصره يلقبونه (سمنون المحب) أما هو فكان يلقب نفسه (سمنون الكذاب) ولهذين اللقبين حكاية .. فقد كان سمنون ينسج غزلياته وينظم محبته لله ، فقال بلسان العاشق :

· ولَيْسَ لِي فِي سُوَاكَ حَظٌ فَكَيْفَمَا شَاءَ فَامْتَحِنِي
· إِنْ كَانَ يَرْجُو سُوَاكَ قَلْبِي لَا نَلْتُ سُؤْلِي وَلَا التَّسْمِنِي

وعندما أنشد هذين البيتين ، ابتلاه الله باحتباس البول . فصار يتلوى من الألم .. وظل يدور على الصبيان في الكتابات ويقول لهم : ادعوا لعمكم الكذاب ! تلك هي الحكاية كما يرويها المؤرخون . لكن القشيري في رسالته يرويها على نحو آخر ، فيذكر أن سمنون لما ابتلي باحتباس البول كان ساكناً

ولم يجزع، فرأى مَنْ حوله يقولون: سمعنا سمنون يتضرع إلى الله ويسأله الشفاء. ولم يكن هو قد فعل، فعرف أن ما سمعه الناس هو إشارة من الله إليه، كي يُظهر الجزع ويتأنب بأذاب العبودية ويستر حاله وصبره. فظل يدور على الصبيان في الكتاتيب قائلاً: (ادعوا لعمكم الكذاب) تلبية لهذه الإشارة الإلهية.. ولا شك في أن حكاية القشيري أكثر تقديراً لشخص سمنون، لكنها أيضاً أكثر افتالاً وتصنعاً

عاش سمنون ببغداد أيام كانت تموج بالنقضيين، البذخ والترف من جهة، ومن الجهة الأخرى الزهد والتقاليف. وكانت بغداد آنذاك عامرة ببرجال التصوف من أمثال الحلاج والشبلبي والجندى والسرى السقاطي وأبي أحمد القلansi . وقد صحب سمنون كل من السقاطي والقلansi ومحمد بن علي القصاب ، وكانوا جمِيعاً من جلة مشايخ بغداد وأكابر صوفيتها . لكن أقوال وأحوال سمنون في المحبة، جعلته يختص من دونهم بلقب المحب.

ويروي المؤرخون العديد من وقائع زهد سمنون وتبنته وإقامته فرائضن الدين ونوافله، وأيضاً كراماته. فمن تعبداته يروي السلمي والقشيري وأبو نعيم، أن سمنون المحب كان يجلس مع أبي أحمد القلansi ، وإذا بأحد الأغنياء يوزع على الفقراء أربعين ألف درهم . فقال سمنون للقلansi : «هذا الرجل أنفق، ونحن لا نملك ما ننفقه تقرباً إلى الله ، فامض بنا إلى موضع نصلي فيه بكل درهم أنفقه الرجل ركعة ..». فذهبا إلى المداشر وصليا أربعين ألف ركعة! ولهذه الواقعة مغزى ودلالات يضيق المقام هنا عن استعراضها.

أما عن كراماته، فيروي الهجوبي في كتابه (كتف المحجوب) أن سمنون كان عائداً من الحج، فتوقف بمدينة «فيد»، فطلب أهلها منه أن يحدثهم . ولما اعتلى سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون

فيما بينهم فلا يستمع إليه أحد، فالتفت سمنون إلى قناديل المسجد وقال:
«أني أتحدث إليك».. فاصطكت القناديل وتحطم كلها.

ومع أن مكانة سمنون المحب كانت معروفة لدى معاصريه، إلا أنه ابتهل ب الرجل كان يحط من شأنه دائمًا عند الخليفة، وكان ذلك الرجل هو (غلام الخليل) المشهور آنذاك بالغراء والتقارب إلى السلاطين والشهير بالصوفية لدى الحكماء. ويقول الهجوري:

«ولما كبر جاه سمنون في بغداد، وتقرب إليه كل شخص، تالم (غلام الخليل) من ذلك، وأخذ في اختلاق الأوضاع، حتى وقعت عين أمر على جمال سمنون، وعرضت المرأة نفسها عليه، فأبى. وذهبت المرأة إلى الجنيد فائلة: قل لسمنون أن يتزوجني فغضب منها الجنيد وزجرها. فذهبت إلى (غلام الخليل) واتهمت سمنون بتهمة مما تهم النساء به الرجال، واستمع (غلام الخليل) إليها كما يسمع الأعداء، وأخذ في الطعن على سمنون، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله، فلما أحضروا السيف، واستؤذن الخليفة، انعقد لسانه حين إصدار الأمر! ولما جن الليل، نام الخليفة فرأى في النوم من يقول له: «إن زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك» وفي اليوم التالي اعتذر لسمنون ورده مكرماً..». وقد وردت هذه الحكاية باختلاف طفيف، في كتاب آخر، هو (اللمع في التصوف) للسراج الطوسي.

ومعظم أشعار سمنون تراثيُّ عشقٍ قصار، فلا نجد في شعره قصيدة مطولة، وإنما هي متفرقات لا تزيد الواحدة على أربعة أبيات. وهذه الخاصية لا نجدها فقط عند سمنون، بل كانت سمة عامة للشعر الصوفي آنذاك، ولم تُعرف القصائد الصوفية الطوال، إلا فيما بعد القرن الخامس الهجري.

ويكاد شعر سمنون أن يكون وقفاً على المحبة وحدها، فهو في الغالب لا يتطرق بأشعاره إلى الموضوعات الصوفية الأخرى، وكأنه وجد صلةً وتناسباً

بين الشعر والمتحفة، فاستخدمه للتعبير عنها.. ومن المصادر والمراجع المختلفة، جمعنا شعر سمنون، وكانت هذه الحصيلة التي نقدمها هنا للمرة الأولى مجتمعة، يقول سمنون:

ولكن دمع الشوق يُنکي به القلب
ولكنه شيءٌ يهیجُ به الكربُ
بنار مواجهٍ يُصرّمها العَثُبُ
ويُعْتَبِي حتى يُقال ليَ الذنبُ

بكبت ودمع العين للنفس راحة
وذكرى لما ألقاه ليس بنا في
فلوقيل ما أنت؟ لقلت معذبٌ
بليت بين لا أستطيع عتابه

[البسيط]

هل في المذلة للمشاق من عاري
تفطر الصخر عن مشتوقِ النصار
دبب لفظي من روحي وإضماري
وكل جارحة من خاطري جاري

أفديك بل قل أن يفديك ذو دنيٍ
بي منك شرق لو أن الصخر يحمله
قد دب حبك في الأعضاء من جسدي
ولا تنفست إلا كنت مع نفسي

[الكامل]

وابلغ بجهدك غاية الشكوى
واجهز بها في السر والنحو
تركت لنفسك غاية قصوى
عما تحب بحالة أخرى

ضَاعِفْ عَلَيْ بجهدك البلوى
واجْهَدْ وبالغْ في مهاجرتي
فإذا بلغتَ الجهدَ فيَ فَلَمْ
فانظرْ فهل حال بي انتقلت

[الطوبل]

وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلست أراه عن فنائك يبرح
إذا كنت في الدنيا بغدرك أفرج

وكان قلبي خالياً قبل حكم
فلما دعا قلبي هواك أجابه
رميت بي منك إن كنت كاذباً

إذا غبت عن عيني بعيني يلمح
فلست أرى قلبي لغيرك يصلح

وإن كان شيء في البلاد بأسرها
فإن شئت واصلي وإن شئت لا تصل

[الطوبل]

زمان إذا أمضى عزاليه أختسى
فجراحتها من بحر صبرى أكتوسا
وقلت لنفسي الصبر أو فاهملكي أسى
لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

ويقول:

تجرعـت من حالـيه نـعمـى وأبـوسـا
فكـم غـمـرة قد جـرـعـتـي كـؤـوسـها
تلـدـعـتـ صـبـريـ والـتـحـفـتـ صـرـوفـهـ
خـطـوبـ لـوـانـ الشـمـ زـاحـمـ خـطـبـهاـ

[الخفيف]

ليس إلا لأن ذاك هواكـاـ
السود ودعني معلقاً سرجـاسـاكـاـ
ومن أشعاره التي لا تزيد عن بيتين، قوله:

[البسيط]

فأنت والقلب شيء غير مفترق
إلا وجدتك بين المجنن والحادق

وقوله:

شـغـلـتـ قـلـبـيـ عـنـ الدـنـيـاـ وـلـدـتـهـ
وـماـ تـطـابـقـتـ الأـحـدـاقـ مـنـ سـنـةـ

[الطوبل]

رضي لك أو مدين لنا من وصالـكـاـ
سروراً لأنـيـ قدـ خـطـرـتـ بيـالـكـاـ

وقوله:

لوـقـيلـ طـاـ فيـ النـارـ أـعـلـمـ أـنـهـ
لـقـدـمـتـ رـجـلـيـ نـحـوـهـاـ فـوـطـشـهـاـ

[الطوبل]

أحنـ بـأـطـرافـ النـهـارـ صـبـابـةـ
وـبـالـلـيلـ يـدـعـونـيـ الـهـوـيـ فـأـجـبـ

وقوله:

وأيامنا تفني وشوقى زانـدـ كـانـ زـمانـ الشـوقـ لـيـسـ يـغـيـبـ

[الوافر]

وتسكن رواعتي عنيد العتاب
فمالـيـ قـدـ كـبـرـتـ عـلـىـ التـصـابـيـ

وقوله:

يعـاـتـبـنـيـ فـيـ بـسـطـ انـقـبـاصـيـ
جـرـىـ فـيـ الـهـوىـ مـذـ كـنـتـ طـفـلاـ

[الكامل]

أـسـفـاـ عـلـيـكـ وـفـيـ الـفـؤـادـ كـلـوـمـ
إـلـاـ عـلـيـكـ فـيـأـهـ مـذـمـومـ

وقوله:

أـمـسـ بـخـدـيـ لـلـدـمـوعـ رـسـومـ
وـالـصـيرـ يـحـسـنـ فـيـ الـمـاـطـنـ كـلـهـاـ

[البسيط]

مـنـهـ،ـ فـيـانـ فـقـدـتـكـ النـفـسـ لـمـ تـعـشـ
هـلـفـيـكـ لـيـ رـاحـةـ إـنـ صـحـتـ:ـ وـاعـطـشـيـ

وقوله:

أـنـتـ الـحـبـيـبـ الـدـيـ لـاـ شـكـ فـيـ خـلـديـ
يـاـ مـعـطـشـيـ بـوـصـالـ أـنـتـ وـاهـبـهـ

[المتقارب]

وـشـرـدـتـ نـوـمـيـ فـمـالـيـ رـقـادـ

وـمـنـ أـبـيـاتـ الـمـفـرـدةـ:

تـرـكـتـ الـفـؤـادـ عـلـيـلـاـ يـعـادـ

[الكامل]

مـنـ ذـاـ يـجـدـكـ بـلـاـ وـجـودـ يـظـهـرـ

وـمـنـهـاـ:

هـبـيـ وـجـدـتـكـ بـالـعـلـومـ وـوـجـدـهـاـ

[الطوبل]

وـلـاـ بـدـ مـنـ سـلـوـيـ إـذـاـ لـمـ يـكـنـ صـبـرـ

وـمـنـهـاـ:

وـلـاـ خـيـرـ فـيـ شـكـوـيـ إـلـىـ غـيرـ مـشـكـيـ

وـأـخـيـراـ..ـ فـلـنـخـتـمـ وـقـفـتـنـاـ مـعـ مـحـبةـ سـمـشـونـ،ـ بـخـبـرـ عنـ قـدـرـ اـحـتـرـاقـهـ بـنـارـ
الـحـبـ.ـ قـالـ السـلـمـيـ،ـ قـالـ أـبـوـ الطـيـبـ الـعـكـيـ:ـ ذـكـرـ لـيـ أـنـ سـمـشـونـ كـانـ جـالـسـاـ

على شاطئ دجلة، وبهذه قضيب يضرب به فخذه، حتى بان عظم فخذه
وساقه وتبدل لحمه، وهو يقول:
[المديد]

كأن لي قلب أعيش به ضاع مني في تفليه
رب فارده على فقد ضاق صدري في تطلبيه
وأغث ما دام بي رمق يا غياث المستغيث به

* * *

بخصوص سمنون المحب ومتفرقاته الشعرية، تراجع:
حلية الأولياء لأبي نعيم - طبقات الصوفية للسلمي - الرسالة للقشيري -
تاريخ بغداد لابن الخطيب - كشف المحجوب للهجويسي - اللمع في
التصوف للسراج - التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي - صفة الصفو
لابن الجوزي - الشعر الصوفي للعواودي .

أبو علي الروذباري

(المتوفى ٣٢٢ هجرية)

التصوف مذهب كله جد، فلا تخلطوه بشيء من الهزل..

حين يتحدث المؤرخون عن الروذباري ، نجدهم يستهلون الحديث عنه بوصفه بصفات مثل: شيخ الصوفية - الزاهد المشهور - أظرف المشائخ وأعلمهم بالطريقة - اللسان الفصيح والبيان النجيع - الشيخ محمود ومعدن الجود.. وكلها أوصاف مشوّقات للاقتراب من هذا الرجل والتعرف عليه عن كثب .

هو أبو علي أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار بن مهرزادار بن فرغدد بن كسرى .. وهو كما نرى من سلالة أمراء فارس وملوكهم ، لكنه ترك الإمارة وسار في طريق الزهد والتصوف ، مؤثراً الدين تاركاً الدنيا . وينسب الشيخ إلى روذبار ، التي يقول عنها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) :

«روذبار عدة مواضع ، وكان معناها بالفارسية (موقع النهر) قال أبو موسى الحافظ الأصفهاني : هي ناحية من طسوج أصبهان ، تشتمل على قرى كثيرة ، فيها جماعة كثيرة من أهل العلم .. وروذبار أيضاً قرية من قرى بغداد . وقال السمعاني : الروذبار لفظة لمواضع عند الأنهار الكثيرة في بلاد متفرقة ، منها موضع على باب الطايران ببطوس ، يُنسب إليه أبو علي محمد بن

أحمد بن القاسم الروذباري الصوفي، سكن مصر وله تصانيف حسان في التصوف، وكان من أولاد الرؤساء والوزراء، صحاب الجنيد وكان فقيهاً محدثاً نحوياً، وله شعر حسن رقيق، مات سنة ٣٢٣^(١). وقد نسبه السمعاني إلى روذبار طوس، وأبو موسى إلى روذبار بغداد، والأول أصح».

ونزل أبو علي من بلدته الفارسية إلى بغداد، وهناك تلقى علوم الفقه واللغة والأدب، وتحصّص في علم الحديث النبوى فحصل فيه على معرفة واسعة بالروايات وأحكامها، حتى روى عنه أنه كان يفتى بالحديث.. أي يورد لكل قضية تعرض عليه، حديثاً نبوياً يستند إليه في فتواه. ثم دخل الشيخ غمار التصوف، فتلقى تربية روحية على يد أبي القاسم الجنيد (شيخ الطائفة) وصاحب مدة تعرّف خلالها على دقائق المفاهيم الصوفية، وحقائق الرحلة الروحية إلى الله، وقد أشار الروذباري إلى أستاذته في المرحلة البغدادية من حياته فقال: أستاذِي في التصوف الجنيد، وفي الفقه ابن سُرِّيج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث النبوى إبراهيم الحربي.

وبدأ الروذباري سياحاته الصوفية في أرض الله، فزار العديد من البلدان، واستقر أخيراً في مصر، وحدث بها ألف، وصار واحداً من أئمة التصوف المشهورين. والمؤرخون يذكرون أنه وضع مجموعة من المؤلفات الصوفية، والكلاباذى يذكره ضمن الذين نشروا علوم التصوف كتاباً ورسائل.. لكنه لا توجد اليوم أية مؤلفات معروفة - سواء مطبوعة أو مخطوطة - للروذباري.

لكتنا نستطيع التعرف على الإطار العام لفكرة الروذباري وتصوفه، من خلال تلك المواقف والعبارات التي حفظتها لنا كتب الطبقات. وأول ما يلفت

(١) أجمعـت المصادر التاريخية على أن وفـاة الروذـباري كانت سـنة ٣٢٢، ويندو ما أورده ياقـوت هنا، وكـأنه سـهو أو خطـأ غير مـتـعـمـد.

النظر في آثار الروذباري، ذلك التمسك الشديد بظاهر الشريعة الإسلامية، و موقفه المتشدد من أولئك الأدعية الذين اتخذوا التصوف ذريعة للتحلل من قواعد الشرع. فقد روي أن معاصريه سأله عن حكم رجل كان يستمع إلى الملاهي، ويقول: إن ذلك لا يؤثر فيه لأنه وصل.. قال السروذباري: نعم وصل، ولكن وصوله إلى سقرا

وكان الروذباري يدعو معاصريه للتوبة إلى الله والرجوع إليه، وهي دعوة كان عصر الروذباري في حاجة ماسة إليها، بعد انتشار ظاهر الغفلة والبلخ الشديد. يقول الروذباري: من الاغترار أن تُسيء فِيْحَسْنَ إِلَيْكَ، فتُرَكَ الإِنَابَةُ وَالتَّوْبَةُ، تُوهَمَاً أَنْكَ تَسَامَحَ فِي الْهَفْسَوَاتِ، وَتَرَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَسْطِ الْحَقِّ لَكَ.. كما كان يدعو للمفاهيم الصوفية قائلاً: إنَّ الْمُشَتَّاقِينَ إِلَى اللَّهِ يَجِدُونَ حَلَوَةَ الْوَقْتِ عِنْدَ وَرَوْدَهِ، لَمَّا كُشِّفَ لَهُمْ مِنْ رَفْحِ الْوَصْولِ إِلَى قَرْبَهِ، أَحْلَى مِنَ الشَّهَدِ. ويقول: لا رضا لمن لا يضر، ولا كمال لمن لا يشكك. ويقول: من رُزِقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ فَقَدْ سَلِمَ مِنَ الْأَفَاتِ: بَطْنَ جَائِعٍ مَعَهُ قَلْبٌ خَائِسٌ، وَفَقْرٌ دَائِمٌ مَعَهُ زَهْدٌ حَاضِرٌ، وَصَبْرٌ كَامِلٌ مَعَهُ قِنَاعَةٌ دَائِمَةٌ.. ويقول أخيراً: في اكتساب الدنيا مذلة النقوس، وفي اكتساب الآخرة عزها؛ فِيَا عَجِباً لِمَنْ يَخْتَارُ الْمَذْلَةَ فِي طَلَبِ مَا يَفْنِي، عَلَى العَزِّ فِي طَلَبِ مَا يَبْقِي.

وللروذباري وقوفاته ذوقية في تفسير القرآن، يسكب فيها على النص القرآني رحيق الذوق الصوفي - فنراه في بعض تفسيراته الصوفية يقول: «تَشَوَّقَتِ الْقُلُوبُ إِلَى مُشَاهَدَةِ ذاتِ الْحَقِّ، فَأَلْقَيَتِ إِلَيْهَا الْأَسَامِيَّ، فَرَكَّنَتِ إِلَيْهَا، وَالذَّاتُ مُسْتَرَّةٌ إِلَى أَوَانِ التَّجْلِيِّ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَنْشَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١) فَوَقَفُوا مَعَهَا عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقَّاتِ، فَأَظَهَرَ الْأَسَامِيَّ وَأَنْدَاهَا لِلْخَلْقِ لِتَسْكِينِ شَوْقِ الْمُسْجِبِينَ لَهُ، وَثَانِيَسْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ بِهِ».

(١) سورة الأعراف (آلية: ١٨٠).

وكان الروذباري من أوائل الصوفية الذين وضعوا تعريفاً للمصطلحات الصوفية، على نحو ما سرره بعده بزمن طويل عند ابن عربي والقاشاني وغيرهما، ومن خصصوا مؤلفات مستقلة في شرح المصطلح الصوفي . ولما كانت مؤلفات الروذباري مفقودة، فسوف نحاول تقديم صورة لتلك التعريفات التي وضعها المؤرخون ضمن ترجمته، فمن ذلك:

- التصوف: مذهب كله جد، فلا تخلطوه بشيء من الهراء.

- الصوفي: مَنْ لِبِسَ الصُّوفَ^(١) عَلَى الصُّفَاءِ، وَأَطْعَمَ الْهُوَى ذُوقَ الْجُفَاءِ؛ وكانت الدنيا منه على القفا، وسلك منهاج المصطفى .

- المريد: الذي لا يريد لنفسه إلا ما أراده الحق له .

- المراد: الذي لا يريد من الكونين^(٢) شيئاً غير الله .

- الإشارة: هي الإبانة عما يتضمنه الوجود من المُشار إليه^(٣)؛ وهي الحقيقة، فالإشارة تصحبها العلل^(٤)، والعلل بعيدة عن عين الحقائق ..

- التوبية: الاعتراف والندم والإقلالع .

- اليقين: ما عظَمَ الحق في عينيك، وصَغَرَ ما دونه عنديك، وأثبتت الخوف والرجاء في قلبك .

- وكان يقول: المشاهدات للقلوب، والمكاشفات للأسرار، والمعاينات للبصائر، والمرئيات للأبصار .

(١) الصوف علامة على ليس بالخشن من الثياب، زهدًا في المتع الدنيوي .

(٢) الكونان: هما الدنيا والآخرة .

(٣) المشار إليه عند الصوفية هو الله تعالى .

(٤) العلل هنا مقصود بها مزالق اللغة .

وتوفي الروذباري بمصر، بعد أن نال مكانة صوفية بارزة، وتقديرًا عميقاً عند معاصريه وتلاميذه، وكان مما قاله قبل وفاته، هذه الأبيات:

[البساط]

ولو مضى الكل مني لم يكن عجبا وإنما عجبي للبعض كيف بقي
أدرك بقية روحٍ فيك قد تلفت قبل الفراق فهذا آخرُ السرقة

وإذا حاولنا أن نتعرف على المزيد من تصوف الروذباري، من خلال
أشعاره، فإن أول ما يستوقفنا هو تلك الغزلية الصوفية السرفقة التي يبيت فيها
أشواق محبته قائلاً:

لو أن فيك هلاكها ما أقلعت
حتى يُقال: من البكاء تقطعت
فلطالمما متعتها فتمتنعْ
روحِي إليك بِكُلِّها قد أجمعت
تبكي إليك بِكُلِّها عن كُلِّها
فانظر إليها نظرة بتعطفِ

ومن أعقد أشعار الروذباري وأكثرها ذكرًا للضمائر، تلك الأبيات التي
أراد فيها الإشارة لضرورة ستر المحبة وصون سرها عن الشيوخ في غير أهلها،
فقال:

بكَ كتمانٌ وَجِدَوْ بكَ غَنْهُ
مَنْ إِذَا لَاحَ لَا يَحْ لَمَشْوِقٍ
وَإِذَا أَفَلَ الْأَفُولُ بِسَبِيلِ
يَا فتى الْحُبِّ، بَلْ فتى الْحَقِّ، سَرِي
لَكَ مِنْهُ، وَعَنْهُ مَا لَكَ مِنْهُ
هَامَ وَجْدًا عَلَيْكَ إِنْ لَمْ تَكُنْهُ
بَيْانٌ عَنْهُ فَبَيْانٌ إِنْ لَمْ تُبَيِّنْهُ
غَنْهُ مُشَتَّدُّ لِدِيكَ فَصَنْهُ
ثُمَّ يَعُودُ الروذباري رقيق الشعر، فيتناول القاعدة الصوفية في المحبة،
تلك القاعدة التي لا تعرف بمحبة الله في قلب، إلا إذا خلا هذا القلب من
حب سواه! فإذا لم يتحقق شرط المحبة المخلصة، فلا خير فيها.. يقول

الشيخ:

[الكامل]

وعن الهوى والأنس بالأحباب
ما كان مفترقاً من الأسباب
لمنال حظ أو لحسن ماب

من لم يكن بك فانياً عن حبه
او تيمته صباية جمعت له
فكاهة بين المراتب واقف

[المتقارب]

حلول فنائك صفو الوصال
إليك عن الوصل في كل حال
بنعت التمكّن عند الكمال
وابق مدى لحظة في التوال

ومن شعره:

تأمل من بعد تأمبله
موانع عند احتواء الوصال
إلى أن يردد عليك الصفات
فإنقذ بقناعتيه إن تراه

في تلك الأبيات السابقة، يشير الروذباري في البيت الأول، إلى الأمل في القرب من الله. فهو يدعى الصوفي الذي صدق فناؤه في الله، إلى الاستبشار والتربّب، لأنّه تعالى وعد الصادقين في المحبة بالقرب.. وفي البيت الثاني، نجد الروذباري يتحدث في دقّيقة صوفية، هي أنّ القرب من الله لا يتحقّق بتمامه ما دام الإنسان حياً، فهناك موانع للوصول الآثم، منها بقاء الجسد! وهنا نلاحظ تفرقة الروذباري بين مصطلحي الوصال والوصل، وهي تفرقة صوفية دقّيقة كل الدقة. وفي بقية الأبيات يدعو الروذباري إلى قناعة الواسط بلحظة سريعة من القرب الإلهي، وهي لحظة مرحلية لا تزال فيها الأقنعة (حجب النور والظلمة) تعوق المشاهدة التامة لجمال المحبوب. ثم تأتي اللحظة الأخيرة (التمكّن) حتى توارد الصفات الإلهية على الصوفي، الذي كساه الله رداء الكمال.. وتلك هي الفكرة التي ستقوم عليها بعد ذلك أعمق نظريات التصوف: نظرية الإنسان الكامل.

وأخيراً.. يقوم الروذباري على قدم (الشكس) الذي هو واحد من
مقامات أهل الطريق، فيتوجه إلى مولاه قائلاً:

لسو كلُّ جارحةٍ مني لها لغةٌ تثنى عليك بما أوليت من حسنٍ
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أزيد في الإحسان والمنِّ

* * *

بخصوص الروذباري يمكن الرجوع إلى:

طبقات الصوفية للسلمي - الرسالة القشيرية - التعرف للكلامي -
معجم البلدان - حلية الأولياء - كشف المحجوب - صفة الصفو - المنتظم -
دول الإسلام - البداية والنهاية لابن كثير - النجوم الزاهرة - حسن المحاضرة -
سير أعلام النبلاء - العبر - شدرات الذهب.

شهاب الدين السهروري

(المقتول ٥٨٧ هجرية)

ابداً تحسُّن إليكم الأرواح ووصاكم ريحانها والراخ
[الكامل]

هو شيخ الإشراق الذي مات في شبابه! صاحب المؤلفات التي كتبها وهو في الثلاثين من عمره، ولا تزال تشغل بال مشايخ الدارسين من العرب والمستشرقين . . وهو المتوفد الذي بحث في زمانه عن رجلٍ واحدٍ يشاركه الحكمة، فلم يجده فتحسَّر قائلًا: ها هو ذاتي قد بلغ إلى قريبٍ من ثلاثة سنَّة، وأكثر عمرِي في الأسفار والاستخبار والتقصُّص عن مشاركي مطلعٍ على العلوم، ولم أجده من عنده خبرٍ عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها.

ولد أبو الفتوح يحيى بن حيش، الملقب بشهاب الدين السهروري^(١)، ببلدة فارسية بأرض الجبال قرب زنجان تسمى سهرورَد، في بدء النصف الثاني من القرن السادس الهجري، ولقي مصيره المفجع حين بلغ السادسة والثلاثين من عمره . . ولهذا المصير تفصيل سنذكره فيما بعد.

ويرتَحِل السهروري من بلدته إلى (مراغة) ليتعلم الحكمة وأصول الفقه من الشيخ مجد الدين الجيلي، ثم يرحل مرة أخرى إلى (أصفهان)

(١) هناك العديد من المشهورين بلقب «السهروري» فإلى جانب الشخصية التي نتحدث عنها هنا، يُعرف بهذا اللقب: الشيخ أبو النجيب السهروري المتوفى ببغداد سنة ٥٦٣ هجرية . . الشيخ شهاب الدين أبو حفص السهروري صاحب: (عوارف المعارف) المتوفى ٦٣٣ هـ.

ليدرس المنطق على يد ظهير الدين الفارسي .. ولا يلبث أن يتجه إلى (ماردين) ليأخذ علوم اللغة والفلسفة من فخر الدين الماردینی . وبعد اكتمال العدة، والتزود بالعديد من العلوم، يصبح الصوفية، ويشغل نفسه بالرياضيات الروحية والخلوات حتى تكتشف له حقائق الأولياء .. فيخرج من خلوته وهو شاب لم يتعد العشرين إلا بسنوات قليلة، فيسیح في الأرض متأملاً، مستغراً، محاولاً الارتقاء إلى نبع الأنوار العلوية.

وفي سياحاته بأرض الله، يمر السهوروبي على ما لا حصر له من البلدان، فنراه مرة في (ميافارقين) ومرة في (ديار بكر) ومرة في الأناضول وببلاد الروم، ثم نراه للمرة الأخيرة في (حلب) حيث كان موعده مع القتل .. وطيلة تلك الارتفاعات، كان السهوروبي يمضي في زي الدراويش غير ملتفت إلى متاع الدنيا. يقول المؤرخون: في سنة ٥٧٩ هجرية، قدم شهاب الدين السهوروبي إلى حلب، ونزل في مدرسة الملاوية، فلما حضر الدرس ويبحث مع الفقهاء، كان لا يساً (دلق) وهو مجرد باوريق وعказ خشب، وما كان أحد يعرفه، فلما بحث وتميز بين الفقهاء، أخرج شيخ المدرسة له ثوباً عنانياً وغلاله ولباساً، وقال لولده: تروح إلى هذا الفقير وتقول له: والدي يسلّم عليك ويقول لك، أنت رجل فقيه فلتحضر الدرس بين الفقهاء، وقد سير لك والدي شيئاً تلبسه إذا حضرت .. فلما قال الصبي ذلك للسهوروبي، ابتسم، وأنحر له فصاً من الأحجار الكريمة، وطلب منه أن يذهب إلى سوق الجوهرية ليعرف ثمنه، فذهب الصبي وعرض الفص، وتصادف أن كان الملك الظاهر هناك، فأوصله إلى ثلاثة ألف درهم. وعاد الصبي إلى السهوروبي وأبلغه الأمر، فأخذ منه الفص ودق عليه بحجر كبير حتى جعله تراباً لا يصلح لشيء، ثم ناول الصبي الثياب التي أحضرها، وقال له: خذ يا ولدي هذه الثياب، ورُجع إلى والدك، وقبل يده عنى، وقل له: «لو أردنا الملبوس ما غلبنا».

وكانت للسهروردي فلسفته الطريفة في مسألة الثياب هذه.. حكى أحد فقهاء قزوين أنه نزل برباط صوفي بأرض الروم، وكان السوق شتاءً، فسمع صوت قارئ للقرآن، فقال للخادم الذي في السرباط: من هذا القارئ؟ قال: شهاب الدين السهروردي. فقال له: إني سمعت به منذ مدة، وأريد أن أراه، فأخذلني عليه. قال الخادم: لا يدخل عليه أحد، لكنه إذا علت الشمس يخرج ويصعد السطح، فأبصره.. يقول هذا الفقيه: فقصدت حتى خرج، فرأيته وعليه ثوب من اللباد الأسود، فقمت وسلّمت عليه، وعرفته أني قدّست زيارته، وسألته أن يجلس معي ساعة، فطوى مصلاه، وجلس، فجعلت أحدهه وهو في عالم آخر، فقلت له: لو لبست شيئاً غير هذا اللباد. فقال: يتوسّخ! فقلت: تغسله. فقال: يتوسّخ! فقلت: تغسله.. قال السهروردي: ما حيّت لغسل الثياب، لي شغل أهم من ذلك.

.. ترك السهروردي العديد من المؤلفات الرائعة، فكتب باللغة العربية: حكمة الإشراق - التلويحات - المقاومات - الألواح العمادية - الواردات - الغربية الغربية - كلمات ذوقية ونكات شوقية.. . وكتب بالفارسية: لغات موران (لغة النمل) صفير سيمُرغ (صفير العنقاء) آوزبزير جبرائيل (أصوات أجنحة جبرائيل).. ومن مؤلفاته، ما كتبه بالعربية ثم أعاد كتابته بالفارسية، مثل: هياكل النور. تلك بعض الأمثلة من تأليف السهروردي التي تبلغ قرابة الخمسين، والتي تبلغ قدرًا من الرمزية الساحرة في ألفاظها ودلاليها، والتي لا زالت تشغّل بالدارسين وتلهب خيال الصوفية.

أما مذهب السهروردي في التصوف، فقد بدأ انطلاقه من السّورة الروحية الهائلة التي فجّرها الحالج وانفجر بها. وذلك ما دعا المستشرق هنري كوربان - وهو من أفضل المتخصصين في السهروردي - للقول: لقد

بدأ السهوروبي حياته الروحية بنغمة من شعر الخلاج في التوحيد، وقضى عمره يوقع عليها متنوع الألحان، وتلك النغمة هي : [الطوبل]

لأنوار نور النور في الخلق أنوار وللسّرّ في سرّ المُسّرّين أسرار

وقد غاص دارسو السهوروبي في مؤلفاته، لبحث مذهبة الصوفي.

لكنهم لم يتوقفوا في غوصهم إطلاقاً عند شعره الصوفي، بل إن ما كتب عنه يخلو تماماً من ذكر ما ترجم به من أشعار، حتى تلك المقالات والدراسات التي جمعت في كتاب واحد صدر في الذكرى المئوية الثامنة، لم يرد فيها بيت شعري واحد للسهوروبي . فكان أن اشتهر الرجل في مجال البحث، وظل مجهولاً في عالم الشعر الصوفي .. لهذا، فسوف ندخل لفكرة الرجل من باب الأشعار، كي نتدوّق أدبه ونتعرف على فكره في آن واحد. يقول شهاب الدين السهوروبي :

لأنوار نور الله في القلب أسرار ولما حضرنا للسرور بمجلس
وخفّ بنا من عالم الغيب إسرارٌ ودارت علينا للمعارف قهوةٌ
يطوف بها من جوهر العقل خمارٌ فلما شربناها بأفواه فهمنا
أضاء لنا منها شموسٍ وأقمارٌ ونخاطبنا في سُكّرنا عند صبحونا
قدّيم عليم دائم العفو جبارٌ وكاشفنا حتى رأينا جهرةٍ
يأبصار صدق لا تواريه أستارٌ فغبنَا به عَنَا وَنَلَّنا مرادنا
ولم تبق فينا بعد ذلك آثارٌ سَجَدْنَا سُجوداً حين قال تمتّعوا
برؤيتنا إني أنا لكم جارٌ

في هذه الأبيات ينطلق مما سبق أن انتهى إليه الخلاج، لكنه راح يستكمل مذهب النور الصوفي ، أو ما عُرف عنه باسم (الإشراق) فيحدثنا عن

حضور الأنوار في قلبه عند ارتقائه إلى عالم الحضرة الإلهية، وشربه من خمر المعرف الأزلية. ففي هذا المقام أضاءت في قلبه «شموس وأقمار» وفي هذا المقام تكشفت الأنوار الربانية الباهرة في بصيرة الصدق حتى بدت دون احتجاب خلف المحسوسات - أو الأستار في الأبيات. وفي هذا المقام كانت غيبة الصوفي عن ذاته، وأضمحلال كيانه الإنساني مع سطوة سور التجلّي الإلهي. ولالي تلك الأخيرة، أشار السهروردي في أبيات أخرى فقال حين أفاق من غيته وأضمحلاله: [البسيط]

أَفْتَيْتُ بَعْدَكُمْ، هَلْ عِنْدَكُمْ خَبْرٌ
طَرْفِي وَدَمْعِي، هَلْ لَيْلٌ وَدَأْنِرٌ
قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ أَنْ أَشْفَى بِفُرْقَتِكُمْ
فَقَدْ شَفَيْتُ بِهَا لَمْ يَنْفُعْ الْحَلْوُرُ
الْمَرْءُ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَرْتَجِي غَدَةً
وَدُونَ ذَلِكَ، مَخْبُوءٌ لَهُ قَدَرٌ
الْقَلْبُ يَسْأَلُ وَالْأَمْسَأُ كَاذِبٌ
وَالنَّفْسُ تَلْهُو وَفِي الْأَيَامِ مُغَتَّبٌ

ها هو السهروردي يتحسر على إفاقته من سكر أنوار التجلّي، ويجهو قلبه إلى الانغمار في بحر النور، ويسكي شقوته مع أيام الاحتجاج التي كان القدر يخبئها له، ولا تنفع مع هذا القدر أمنيات قلب العاشق، يُقسم بالصريح النوراني وبالإشراق الرباني، قائلاً: [المسرح]

وَكُلُّ صَبَحٍ وَكُلُّ إِشْرَاقٍ
أَبْكَى عَلَيْكُمْ بَدْفَعٍ مُشْتَاقٍ
قَدْ لَسَعْتُ حَيْثُ الْهَوَى كَبْدِي
فَلَا طَبِيبٌ لَهَا، وَلَا رَاقِي
غَيْرُ الْحَبِيبِ الَّذِي شَغَّفْتُ بِهِ
فَإِنَّهُ رَقِيقِي وَتَرِيقِي

ولا يكتفي السهروردي بأن يجعل الحبيب هو الرقية الحارسة والتسرياق الشافي، بل يُقسم مرة أخرى بصفو الأرواح في عالم «الست بريكم» حين كانت متعممة بقرب الله، مؤكداً أن قدمه لم تتجه لغير طريق الحب، وأن في

انقطاعه عن الناس بالخلوة صلة بالحبيب، وأن وجوده بين الناس عدمُ:

دوبیت

أقسمت بصفو حكم في القلم
قد أمرز حكم بلحمي ودمي
ما زل إلى غير هواكم قدمي
قطعني صلتني وفي وجودي عدمي

ويظل الشوق يدفعه، فيشير إلى العروج لعالم الأنوار بلفظ «السفر» داعياً نفسه إلى عدم التعلق بزخرف المحسوس، متضجرًا من صحبة الأغيار والإقامة في الصحراء، بينما الطريق إلى جنة الأنوار يدعوه: [الوافر]

أقول لجارتي والسمع جاري
ذرني أن أسيّر ولا تُسْوِي
ولاني في السّلام رأيت ضوءاً
إلى كم أجعلُ النّين جاري
وكم أرضي الإقامة في فلاءٍ
وستانني من الصناعات برقٌ

ويعد هذه المقدمات الشوقيّة والترنيمات العشقية، يدخلن بنا السهروردي إلى لُبّ مذهبِه، وهو - كما أسلفنا - ما يعرف بمذهب الإشراق - هذا المذهب يبدأ من اعتبار الله (نور الأنوار) واعتبار ما سواه (مراتب نورانية) أما المادة الكثيفة المحيطة بنا فهي (الجهات الظلامية) . . من خلال هذا التقسيم تبدأ الإشراقية عند السهروردي في تفصيل مراتب النور، فتذكّر أول الأمر: الأنوار المجردة . . وهي على نوعين: أنوار قاهرة علوية لا طاقة لعالمنا الأرضي بها، نظراً لشدة نوريتها؛ وأنوار قاهرة عرضية بها تتم الإشراقات وتكون المشاهدات في بصيرة المتضوف.

وفي كتابه «حكمة الإشراق» يعُدّ لنا السهروردي تلك الأنسار التي تشرق على السالكين، إخوان التجريد، ويدرك صفة كل رتبة نورانية، فيقول:

«إخوان التجريد تشرق عليهم أنوار، لها أصناف: «نور بارق يرد على أهل البدايات وينطوي كلمعة بارق للذيد. ويرد على غيرهم نور بارق أعظم منه وأشبه منه بالبرق، إلا أنه هائل، وربما يُسمع معه صوت كصوت رعد أو دوى في الدماغ. نور وارد للذيد يشبه ورود ماء حار على الرأس. نور ثابت زماناً طويلاً شديد القهر يصحبه خدر في الدماغ. نور للذيد جداً لا يشبه البرق بل تصحبه بهجة لطيفة حلوة، يتحرّك بقوّة المحبة. نور محرك يتحرّك من تحرّك القوى القرية، وقد يحصل من سماع طبول وأبواق وأمور هائلة. نور لامع من خطفة عظيمة يُظهر مشاهدة وإيصالاً أظهر من الشمس في ليلة مُغرة. نور بارق للذيد جداً يتخيّل كأنه متعلّق بشعر الرأس زماناً طويلاً. نور سانح في قبضة مثالية يتراوّى كأنها متمكّنة في الدماغ. نور يُشرق من النفس على جميع الروح النساني، فيظهر كأنه تدرّع بالبدن. نور مبدؤه في صولة، عند مبدئه يتخيّل الإنسان كل شيء يتهدّم. نور سانح يسلب النفس، فيُشاهد تجردها عن الجهات وإن لم يكن لصاحبها علم قبل ذلك. نور يتخيّل معه ثقل لا يكاد يطاق. نور معه قوّة تحرّك البدن حتى يكاد يقطع مفاصله...».

وإذا تأملنا هذه الفقرة، سنجد السهروردي يصف النور كأن له جسماً، مع أنه لم يقرأ نظرية أينشتين! المهم، فلسهروردي مذهب إشراقي جمع فيه بين التصوف والفلسفة والثقافات الفارسية القديمة. وقد قام الدكتور محمد علي أبو ريان بمناقشة تفاصيل هذا المذهب، في بحثه الرائع الذي جعله بعنوان (أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي) فمن شاء الاطلاع على التفاصيل، فليرجع لهذا البحث. أما الآن، فلنرجع نحن إلى

شعر السهوروبي، فنراه يعارض قصيدة الشيخ الرئيس «ابن سينا» في النفس، وهي قصيدة عينية مشهورة، مطلعها:

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ
وَرْقَاءُ ذَاتٍ تَعْزِيزٌ وَتَمْنَاعٌ
مَحْجُوبَةٌ عَنْ كُلِّ مَقْلَةٍ عَارِفٌ
وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَبْرُقْ

كان السهوروبي يقلل من أهمية ابن سينا كفيلسوف - والحق معه، فقيمة ابن سينا وروعة عبريته في الطب لا الفلسفة - ولم يعد السهوروبي ضمن الإشراقيين والحكماء المتألهين، فكان يقول: «لو كان ابن سينا إشراقياً، لتضيع ريح الإشراقية عليه» فاقصد بذلك تردد ابن سينا بين مذاهب أفلاطون وأرسطو وعدم تمكّنه من السلوك الصوفي والرياضيات الروحية. المهم، أن السهوروبي يعارض عينية ابن سينا الشهيرة، فيقول: إن النفس الإنسانية:

[ال الكامل]

خَلَعْتُ هِيَاكِلَهَا^(١) بِجَرْعَاءِ الْحَمْى^(٢)
مَحْجُوبَةٌ سَفَرَتْ وَاسْفَرَ صُبْحَهَا
وَتَلَفَّتْ نَحْوَ الدِّيَارِ فَشَاهَدَتْ
وَخَلَدَتْ تُرَدَّدُ فِي الْفَضَاءِ حَنِينَهَا
فَكَانَهَا أَصْسَوْتُ إِضَاءَةً بَارِقِ
وَقَفَتْ تَسْأَلَهُ فَرِدٌ جَسَابَهَا
فَبَكَتْ بَعْنَ الْحَالِ مَعْهَدَ عَهْدِهَا

وَصَبَّتْ لِمَعْنَاهَا الْقَدِيمَ شَوْقًا^(٣)
وَتَجَرَّدَتْ عَمَّا أَجَدَ وَأَخْلَقَ
رَبِيعًا^(٤) غَفَّتْ أَطْلَالَهُ فَتَمَرَّقَا
فَتَرَوْمَ مَرْتَفَعًا رَلْوَقَ الْمَرْتَقِي
ثُمَّ انْطَوْيَ فَكَانَهُ مَا أَبْرَقَا
رَجْعُ الصَّدِى: أَنَّ لَا سَبِيلَ إِلَى اللَّقَا
أَسْفًا عَلَى شَمْلِ مَضِى وَتَفَرَّقَا

(١) الهياكل: الأبدان.

(٢) جرعاء الحمى: موضع، يشير به السهوروبي إلى لحظة الفناء.

(٣) الربيع: المنزل ودار الإقامة.

وفي هذه الأبيات، يعبر السهوروبي عن قلق النفس الإنسانية المسجونة في البدن والحياة الدنيوية، تعاني شجون المسجون وترقب لحظة الرجوع إلى الأصل، ذلك الرجوع الذي لا يكون إلا بالموت. وهنا يأتي السؤال: **كيف مات السهوروبي؟**

لقد ذكرنا فيما سبق ما كان من نزول السهوروبي في المدرسة الجلاوية بحلب، وما كان من إرساله الفص مع الصبي إلى السوق ومشاهدة الملك الظاهر للفص.. ولشريك ابن أبي أصيبيعة يروي لنا بقية ما حصل:

رجع الصبي إلى والده «افتخار الدين» بـ«الملابس التي أرسلها للسهوروبي»، وحكي له ما كان من أمر الفص وتفتيته. فبقي افتخار الدين حائراً في أمر هذا الوافد على المدرسة التي يشرف عليها. وسأل الملك الظاهر عن الفص، وأراد أن يشتريه، فقيل له: إن الصبي عاد به إلى المدرسة الجلاوية، فركب السلطان ونزل إلى المدرسة وقعد في ساحتها وطلب «افتخار الدين» للمثول بين يديه. فلما جاء، طلب منه الفص على أن يدفع فيه ثلاثة ألف درهم، فقال له افتخار الدين: إنه لأحد الصوفية النازلين في المدرسة. فتفكر الملك الظاهر ثم قال: إن صدق حديسي، وهذا شهاب الدين السهوروبي.

وقام الملك الظاهر فاجتمع بالسهوروبي، وأخذه ضيفاً عليه في قلعة حلب، وصارت له متزلة عظيمة عند الملك. لكن الفقهاء اغتصموا من هذا الوافد الجديد، وحسدوا تلك المتزلة التي احتلها.. ثم زاد الغيظ والحسد مع كل مرة يظهر فيها عجزهم العلمي والفقهي في جلسات الجدل والمناظرة التي دارت في البلاط، والتي ظهر فيها علو كعب السهوروبي في العلوم والمعارف، مما أفحى الفقهاء.

فاجتمع الفقهاء الغيرأنون على مكيدة باهرة، صاغوها في سؤال ماكر توجّهوا به للسهروردي :

* هل يستطيع الله أن يرسل نبياً بعد محمد؟

هذا السؤال الخطير يُعرف في المتنطق باسم «قياس الإخراج» ولا توجد له إلا الإجابات القاتلة. فإذا قال: إن الله يمكن أن يرسل نبياً بعد محمد ﷺ فهذا كفر، لأنّه آخر الأنبياء وخاتمهم. وإذا قال: إن الله لا يستطيع ذلك، فهذا أيضاً كفر، لأنّه يحدّ من قدرة الله تعالى ويعني عجزه عن الإتيان بشيء ما... ورد السهروردي بذكاء شديد، فقال:

* ليس لقدرته حد!

ومع ذلك، استنجد الفقهاء من تلك الإجابة أن السهروردي يعتقد بإمكان إرسال نبيًّا بعد محمد ﷺ وهذا خروج عن دين الإسلام. يقول المؤرخون: «فازداد تشنيع الفقهاء عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقالوا: إن يبقى هذا الرجل فإنه سيفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد. وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب، كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل، وهو يقول فيه: «إن هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أن يُطلق، ولا يبقى بوجه من الوجه». .

يقال: لما بلغ السهروردي ذلك، وأيقن أنه مقتول، ولا سبيل لإطلاقه، أو بقائه بوجه من الوجه، اختار أن يترك في مكان مفرد دون طعام أو شراب إلى أن يلقى ربه، ففعل به ذلك... ويقال: خنق بوتير... ويقال: قُتل بسيف... ويقال: حُطَّ من القلعة وأحرق! ويقول ابن أبي أصيوعة: قال السهروردي عند وفاته، وهو يعود بنفسه:

[الرمل]

فبكريني إذ رأوني حزنا
ليس ذا الميت والله أنا
طرت عنه فتشكل زهنا
وأرى الله عياناً بهنا
(لشرون) الحق حقاً بيننا
هي إلا انتقال من هنا
وكذا الأجسام جسم عمنا
واعتقادي أنكم أنتم أنا
ومتن ما كان شرعاً فبنا
وأعلموا أنكم في إثرنا
إنما الدنيا على قرین الفنا
سلام الله مُنْدَح وثنا

قل لاصحابي رأوني ميتاً
لا تظنوسي بائي ميت
أنا عصيور وهذا فقهي
وأنا اليوم أناجي ملاكاً
فانخلعوا الأنفس عن أجسادها
لا ترعنكم سكرة الموتِ فما
عنصر الأرواح فينا واحد
ما أرى نفسي إلا أنتم
فمتى ما كان خيراً فلنـا
فأزحـمونـي تـرـحـمـواـ انـفسـكـمـ
مـنـ رـأـيـ فـلـيـقـوـ نـفـسـهـ
وعـلـيـكـمـ مـنـ كـلامـيـ جـمـلةـ

وانتهت حياة السهروري، وهو في السادسة والثلاثين ا

* * *

أما أحلى أشعار السهروري، وأشهرها، فهي تلك القصيدة التي حفظ لنا ياقوت الحموي والشهرزوري وابن أبي أصياغة وابن خلkan، مجموعة متفاوتة من الأبيات. وبمقارنة ما ورد عند هؤلاء المؤرخين من أبيات القصيدة، نستخرج نصها الآتي:

أبدأ تحيـن إلـيـكـمـ الأـرـوـاحـ
ووصـالـكـمـ رـيـحـانـهـاـ والـرـأـخـ
وإلى لـذـيـذـ وـصـالـكـمـ تـرـثـاخـ
سـتـرـ المـحـبـةـ والـهـيـوـيـ فـضـاخـ
وـكـذاـ دـمـاءـ الـبـائـحـينـ تـبـاخـ

وـقـلـوبـ أـهـلـ وـدـادـكـمـ تـشـافـكـمـ
وارـحـمـتاـ لـلـعـاشـقـينـ تـكـلـفـواـ
بـالـسـرـ إـنـ بـسـاحـواـ تـبـاخـ دـمـاـهـمـ

عند الوُشَاة المدمع السَّحَاخُ
 فيها المُثْكِل أمرهم إِيضاخُ
 للصَّبُ في خَفْضِ الجَنَاحِ جَنَاحُ
 والى يَضَائِمُ طَرْفَةً طَمَاحُ
 فالهَجْرُ لَيْلٌ وَالوِصَالِ صَبَاحُ
 أهل المَحْبَةِ في الظَّلَامِ صَبَاحُ
 من تُورَهَا المَشْكَاةُ والمِضَابُخُ
 رَقُ الشَّرَابِ وَرَقُتُ الْأَقْدَاحُ
 إِنْ لَأَخَ في أَفْقِ الْوِصَالِ صَبَاحُ
 كَتَمَانُهُمْ فَنَمَا الْغَرَامُ فَبَاحُوا
 لِمَا ذَرُوا أَنَ السَّمَاحَ رَيَاحُ
 فَغَدُوا بِهَا مُتَسَاسِينَ وَرَاحُوا
 بِحَرْ وَشَدَّةِ شَوْقِهِمْ مَلَائِعُ
 حَتَّى دُعُوا وَاتَّاهُمْ الْمَفْتَاحُ
 أَبْدًا فَكُلُ زَمَانُهُمْ أَفْرَاجُ
 وَتَهَتَّكُوا لِمَا رَأَوْهُ وَصَاحُوا
 حُجَّبُ الْبَقَا فَتَلَاشَتِ الْأَرْوَاحُ
 إِنَ التَّشْبِهُ بِالْفَلَاحِ فَلَاحُ
 فِي حَانِهَا قَدْ دَارَتِ الْأَقْدَاحُ
 لَا خَمْرَةَ قَدْ دَاسَهَا الْفَلَاحُ^(١)
 غَرَضُ النَّدِيمِ فَيَنْعَمُ ذَاكُ الرَّاحُ
 وَعَلَيْهِ مِنْهَا خَلْقَةٌ وَرَشَاعُ

وَإِذَا هُمْ كَتَمُوا تَحْلُثُ عَنْهُمْ
 وَبَدَتْ شَوَاهِدُ الْسَّقَامِ عَلَيْهِمْ
 خَفْضُ الْجَنَاحِ لَكُمْ وَلِيَسْ عَلَيْكُمْ
 فِي إِلَى لِقَائِمْ نَفْسَهُ مُشْتَاقَةٌ
 عُودُوا بِنُورِ الْوَصْلِ مِنْ غَسْقِ الْجَفَأِ
 هَذَا الْأَنَامُ هُمُ الظَّلَامُ وَإِنَّمَا
 صَافَاصُهُمْ فَصَفَّوْا لَهُ فَقُلُوبُهُمْ
 وَتَمْتَعُوا فَالْوَقْتِ طَابُ بِقُرْبِهِمْ
 يَا صَاحِرُ لَيْسَ عَلَى الْمَحْبُ مَلَامَةٌ
 لَا ذَنْبٌ لِلْعَشَاقِ إِنْ غَلَبَ الْهَوَى
 سَمْحُوا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا بَخْلُوا بِهَا
 وَدَعَاصُهُمْ دَاعِيُ الْحَقَائِقِ دَعْسَةٌ
 رَكِبُوا عَلَى سُفُنِ الْوَفَا وَدَمْوَهُمْ
 وَاللهِ مَا طَلَبُوا الْوَقْسُوفُ يَبَاهُ
 لَا يَسْطِرُونَ لِغَيْرِ ذَكْرِ حَيَّهِمْ
 حَضَرُوا فَغَابُوا عَنْ شَهُودِ ذَوَاتِهِمْ
 أَفْنَاهُمْ عَنْهُمْ وَقَدْ كُشِّفَتْ لَهُمْ
 فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ
 قُمْ يَا نَدِيمُ إِلَى الْمَدَامِ وَهَاتَهَا
 مِنْ كَرْمِ إِكْرَامٍ بِلَدَنْ دِيَانِيَةٌ
 هِيَ خَمْرَةُ الْحُبُّ الْقَدِيمِ وَمِنْهُ
 هِيَ أَسْكَرَتْ فِي الْخَلْدِ آدَمُ أَوْلَى

(١) يشير السهروردي هنا إلى الفارق بين الخمر الحسية، وبين خمر التوحيد الأزلية.

وكذاك نوح في السفينة أسررت
متربحاً وهو الغزال مشرداً^(١)
ويغره الشهد الشهي وقد بدا
وله بذلك رئة ونياج

* * *

بخصوص ترجمات السهوروبي ومقططفات أشعاره يمكن الرجوع إلى:
عيون الأنبياء - وفيات الأعيان - نزهة الأرواح - معجم الأدباء - سير أعلام
النبلاء - شذرات الذهب.

وبخصوص الدراسات والأبحاث المتعلقة بتصوفه، يراجع بحث
الدكتور: محمد علي أبو ريان، بالإضافة إلى مقالة هنري كوربان المهمة التي
ترجمها الدكتور: عبد الرحمن بدوي في كتاب: شخصيات قلقة.. وقد احتوى
(الكتاب التذكاري) على مقالات ودراسات مهمة جداً حول السهوروبي
وأفكاره.

(١) في الأصل (الشارد) وبها لا يستقيم الوزن..

أبو مدين الغوث

(المتوفى ٥٩٤ هجرية)

الله أَكْلَ، وَذِرَ الْوِجْدَ وَمَا حَوَىٰ
إِنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بِصَدْقِ مَرَادٍ
[الكامل]

وَرُوحِي وَأَخْشَائِي وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
وَلَمْ أَذِرْ فِي بَحْرِ الْهُوَى أَيْنَ مَوْضِعِي
فِيَابَخَ بِمَا أَخْفَى تَفَيَّضُ أَدْمَعِي
وَأَرْقَنِي نَوْمِي وَفَارَقْتُ مَضْجَعِي
جَفَوْنِي وَقَالُوا أَنْتَ لِلْحُبِّ مُدَعِّي
غَرَامِي وَوَجْدِي وَالسَّقَامُ وَمَدْمَعِي
فِيَانِي فَقِيرٌ لَا عَلَيَّ وَلَا مَعِي
دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ بِالنَّيْنِيَّ المَشْفَعَ
[الطوبل]

تَمْلَكْتُمْ عَقْلِي وَطَرْفِي وَمَسْمَعِي
وَتَهْتَمْتُمُونِي فِي بَدِيعِ جَمَالِكُمْ
وَأَوْصِيشُمُونِي لَا أَبْرُخُ بِسِرْكُمْ
وَلَمَّا فَنَّتِي صَبَرْتِي وَقَلَّ تَجْلِسِي
وَشَكَوْتُ لِقَاضِي الْحُبِّ، قَلْتُ أَحْبَبْتِي
وَعَنْدِي شَهْوَدُ أَرْبَعُ يَشْهِدُونَ لِي
فَإِنْ طَلَبُوا مِنِّي حَقُوقَ غَرَامِهِمْ
وَإِنْ سَجَنُونِي فِي سُجُونَ جَهَاهِهِمْ

في ليلة رائقة بصعيد مصر، حيث تبدو الحقول المترامية كبحر لا آخر له، استمعت إلى منشد شجي الصوت يترنم بهذه الأبيات.. كان كلما انتقل من بيت لآخر، تقوى النغمات، وتشتد حركة الذاكرين، ويستبد الوجد بقلوب الحاضرين. ولما وصل المنشد للشطر الثاني من البيت الأخير، كان أحد الجالسين قد بلغ المتهوى، فانتفض واقفاً، وطوّح عمامته، وانطلق بين الحقول الناثمة على بساط الليل، مدفوعاً بقوة الجذب إلى اللامحدود..

ومرت سنوات، قبل معرفتي أن صاحب الأبيات هو: شيخ الشيوخ، شعيب بن الحسين الأندلسي، الشهير بأبي مدين الغوث.. شيخ الشيخ الأكبر، محبي الدين بن عربي.

ولد أبو مدين في قرية من قرى أشبيلية، اسمها «قطنيانة» في أسرة فقيرة، ونشأ يتيماً يشتغل برعى الأغنام. وحين تاقت نفسه للخروج في طلب العلم، لم يسمح له إخوته، فدبّر أن يهرب بنفسه. يقول المؤرخون: إنه فرّ في ليلة، فلمحقه أخُوه عند الفجر، وأمره بالعودة فرفض، فعزّ على الأخ الكبير ذلك، وهدّده، فلم يمثّل.. فاغتاظ أخوه واستل سيفاً وضربه، فتلقى أبو مدين الصبي الضربة على عصا كانت معه. فإذا بالسيف تكسر العصا، وإذا بالأخ المعترض يفسح الطريق قائلاً: يا أخي، اذهب حيث شئت.

وذهب أبو مدين يطلب العلم، فزار طنجة وسبتة، ثم استقر بعاصمة العلم والولاية في بلاد المغرب: فاس.. وكان أبو مدين يسعى في حقيقة الأمر نحو الله، وذلك ما صاغه بعد ذلك شرعاً فقال: [البسيط]

يا مَنْ عَلَا فِرَائِي مَا فِي الْغَيْوَبِ وَمَا
أَنْتَ الْغَيَاثُ لِمَنْ ضَاقَتْ مَذَاهِبُه
إِنَّا قَصَدْنَاكَ وَالآمَالُ وَاثِقُهُ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَذُو فَضْلٍ وَذُو كَرْمٍ

تعكس هذه الأبيات الأربع، ما يُعرف عند الصوفية بتمام التفويض. وهي درجة عالية من التوكل، يكون فيها الرضا هو الغالب على القلب في الشدة والرخاء معاً، وذلك هو صدق القصد بالمعنى الصوفي.. ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

لزم أبو مدين جامع فاس، والتلقى هناك بشيخه أبي الحسن بن حمزه الصوفي، فدرس عليه الفقه وعرف أصول الطريق. كما تلقى دقائق الطريق من الشيخ أبي يعزى الذي كان يقيم بجبل «ايروجان»، وكان لقاوهما الأول عارماً، يقول أبو مدين: «بقيت مدة وأخبار سيدى أبي يعزى تردد على وكراماته يتداولها الناس، فملا قلبي حبه، فقصدته مع جماعة الفقراء، فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجهضني الجوع، وتحيرت في خواطر ترد علىي». ثم قلت في نفسي: «إذا قام الشيخ من مكانه، أمرّغ وجهي في المكان» فقام، ومرّغت وجهي، فقمت لا أبصر شيئاً، وبقيت طول ليالي باكيأ: [الطوبل]

قليلٌ لمثلي زفةٌ ونحيبٌ
وليس له إلّا الحبيب طبيبٌ
وأمثلُ ما يلقى المحبُّ خصوصه
إذا كان مَنْ يدعوه ليس يُحيي

فلما أصبح الشيخ أبو يعلى، دعا أبو مدين، ومسح على عينه، فعاد إليه بصره، ثم مسح على صدره فزالت عنه الخواطر.. وتلقى أبو مدين الكثير من المعارف منه، كما تلقى كذلك بعض تلك المعارف من الشيخ أبي عبد الله الدقاق، ويقال إنه كان أول شيخ يتلقى منه أبو مدين. وبالجملة، فقد صحب أبو مدين بفاس نخبةً من أهل المحبة الإلهية، وصفوةً من أهل الطريق.. وقد وصفهم أبو مدين في أبيات له، فقال:

[البساط]

أهل المحبة بالمحبوب قد شغلوا
وخرسوا كُلّ ما يفني وقد عمرُوا
لَمْ تلهمهم زينةُ الدنيا ورُخْرُفها
هاموا على الكون من وجده ومن طرب
داعي التسفيه ناداهم وأقلقهم

وفي محبته أرواحهم بذلكوا
ما كان يبقى فيما حُسِنَ الذي عملوا
ولا جنَاهما ولا حُلُّي ولا حُلُّ
وما استقلَّ بهم ربِّي ولا طَلَّ
فكيف يهُنوا ونارُ الشوقِ تشتعلُ؟

وَفِي خَيَامْ حُمَىِ الْمُحْبُوبِ قَدْ نَزَلُوا
عَرْفُ النَّسِيمِ الَّذِي مِنْ نَشَرِهِ ثَمَلُوا
عَنْ خِدْمَةِ الصَّمَدِ الْمُحْبُوبِ مَا غَلَلُوا
فِي خُبُوهُ، وَعَلَى مَقْصُودِهِمْ حَصَلُوا
مِنْ أَوْلِ اللَّيلِ قَدْ سَارَتْ عَزَائِمُهُمْ
وَأَفَتْ لَهُمْ خَلْقُ الشَّرِيفِ يَحْمِلُهَا
هُمُ الْأَحْبَةُ أَذْسَاهُمْ لَأَنَّهُمْ
سَبِّحَانَ مَنْ خَصَّهُمْ بِالْقُرْبِ حِينَ قَضَوْهَا

ويخرج أبو مدین من فاس، قاصداً مکة مع الحجيج.. فيلتقي هناك بالإمام، باز الله الأشهب: عبد القادر الجيلاني. فيتم المراد بهذا اللقاء، ويرجع أبو مدین من حجته وقد نال من صحبته ل الإمام الجيلاني ما ارتفع به في مقامات الولاية، وما اختتم به معرفته بطريق الصوفية.. والمؤرخون لم يذكروا تاريخ هذا اللقاء، لكننا نعرف من وقائع دراستنا للإمام الجيلاني أنه ذهب للحج مرة واحدة بعد اشتهر أمره، وقد اشتهر أمره سنة ٥٢١ هجرية. بعد أن تصدر للتدريس والإفتاء ببغداد، مما يعني أن اللقاء تم بين أبي مدین والإمام الجيلاني حين كان الأول يتدرب على السلوك، والثاني يعتلي كرسى الولاية. المهم، أن أبي مدین - وهو بعد مبتدئ - كان يظن أن شوقه سوف يسكن في مکة والمدينة، باقتراحه من الحبيب عليه السلام.. لكن الاشتياق ازداد. هنا أدرك أبو مدین ذلك المعنى الذي سوف يشير إليه تلميذه ابن عربی في عبارة رائعة ذكرها في آخر أبواب الفتوحات المکبة: الشُّوقُ يَسْكُنُ بِاللَّقَاءِ،
وَالاشْتِيَاقُ يَهْيَجُ بِالْأَلْقَاءِ! ولما علم أبو مدین تلك الحقيقة، قال شرعاً:

[ال الكامل]

عَجَباً لِقَلْبِي بِالنَّعِيمِ قَدْ اكْتَوَى
عَالْجَتِهِ قَبْلَ الْزِيَارَةِ فَانْطَوَى
مِنْ أَجْلِهَا حُلْتَ مِنَ الصَّبَرِ الْقَوِيِّ
وَالْأَبْرَقِينَ وَمَا لَمْ نَرِجْ^(١) لَسَوِي

يَا قَلْبِي زُرْتَ وَمَا انْطَوَى ذَاكَ الْجَوَى
زَادَ الْغَرَامُ وَزَالَ كُلُّ تَصَبَّرٍ
وَلَهِيبُ وَجْدٍ هَيْجَنْتَهُ رَوْضَةً
بَلْ زَادَ شَوْقِي لِلْحَبِيبِ وَرَأْمَةً

(١) رامة والأبرقان والمنعرج، مواضع بأرض الحجاز.

زُرْتُ الْجَبِيبَ، وَقَبْلَهُ، إِلَّا سِوَا
 نَزَلَ الرَّسُولُ بِهَا وَفِيهَا قَدْ ثَوَى
 فِيهَا الشَّفَاءُ لِكُلِّ عَاصِ، وَالدُّوا
 يَا سَعْدَ مَنْ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى أَوْيَ
 وَصَلَّتِي أَصْلَيْتِي نَازَ الْجَوَى
 فَتَضَاعَفَ الظَّمَانُ الشَّدِيدُ وَمَا ارْتَوَى
 قَدْ جَاءَ فِي النَّجْمِ الْعَظِيمِ إِذَا هُوَ^(٣)
 مِنْ رِبِّهِ، ذُو مَرَّةٍ ثُمَّ اسْتَوَى^(٤)
 أَسْفَأَ عَلَى ذَاكَ الْمَقَامِ وَمَا حَوَى
 فَلَكُلِّ عَبْدٍ مُسْلِمٍ مَا قَدْ نَوَى

تَالَّهُ مَا شَوَّقَ لِطِبِّيَّةَ^(١) بَعْدَ مَا
 أَرْضَ أَحَبَّ إِلَى الْعَلَاءِ مِنَ الْعُلَى
 يَا تَسْرِيَةَ مَا مِثْلَهَا مِنْ تُرْبَةَ
 يَا رَوْضَةَ^(٢) مَا مِثْلَهَا مِنْ رَوْضَةَ
 كَمْ لِي أَنْوَحُ عَلَى الْوَصْوَلِ وَعِنْدَمَا
 فَكَانَنِي الظَّمَانُ صَادَفَ قَطْرَةَ
 قَسْمًا بِطَهَ وَهُوَ يَسِينُ السَّلَى
 وَبِقَابِ قَوْسِينِ الَّذِي هُوَ قَدْ دَنَ^(٤)
 لِأَجَدَّدَنَ نِيَاحَتِي بِسِيَاحَتِي
 حَتَّى أَمْسَوْتُ وَإِنْ أَمْتُ مُتَيَّرَأً^(٦)

وكما قال أبو مدين في البيت قبل الأخير، ظلّ يجدد سياحاته بأرض الله، خاشعاً منجذباً لأنوار الحق تعالى.. لكنه آخر الأمر، يعود إلى المغرب. وكان لا بد له أن يعود، حتى يتلقى نبأ سوف يشرم، وينفتح مریداً سوف يصير له الشأن العظيم. ذلك النبأ، وهذا المرید: مُحيي الدين بن عربي .

تعلق ابن عربي بشيخه، وظلّ وفياً لذكره. وقد حفظ لنا ابن عربي الكثير من أقوال أبي مدين، كما أفادنا في ذكر وقائعه وكراماته، خاصة في

(١) طيبة: من أسماء المدينة المنورة.

(٢) الإشارة إلى الروضة النبوية الشريفة.

(٣) سورة النجم (الآياتان: ١ و ٢): «وَالنَّجْمُ إِذَا هُوَ * مَا ضَلَّ صَاحِبَكُمْ وَمَا غَوَى».

(٤) سورة النجم (الآية: ٩): «فَكَانَ قَابَ قَرْمَيْنِ أَوْ أَدْنَى».

(٥) سورة النجم (الآياتان: ٦ و ٧): «ذُو مَرَّةٍ فَاسْتَوَى، * وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى»..

(٦) المتير والمotor: الذي لم يقض ماري.

كتبه: الفتوحات المكية - موقع النجوم - محاضرة الأبرار.. فمما ذكره ابن عربي في «الفتوحات» قول شيخه أبي مدين: «ما رأيْتُ شيئاً إلَّا ورأيْتُ الباء عليه مكتوبةً». وهي عبارة تشير إلى معانٍ عميقـة عند الصوفـية، فالباء هي الحرف الأول في البـسمـة، وهي أول ما يـنـطقـ به العـبـدـ عند تلاوـتهـ كـلامـ رـبـهـ، ولـذـلـكـ قـالـ الصـوـفـيـةـ: إنـ النـقـطـةـ تـمـيـزـ بـيـنـ الـعـابـدـ وـالـمـعـبـودـ، وـبـالـباءـ ظـهـرـ الـوـجـوـدـ. وقد كان أبو بكر الشبلـيـ يقولـ: «أـنـ النـقـطـةـ التـيـ تـحـتـ الـباءـ»ـ مشـيرـاـ إلىـ مقـامـ التـفـرـقـةـ بـيـنـ اللهـ وـالـعـالـمـ، تـلـكـ التـفـرـقـةـ التـيـ يـسـراـهاـ أـبـوـ مـديـنـ فيـ كـلـ شـيـءـ كـمـاـ يـظـهـرـ مـنـ عـبـارـتـهـ.. وـهـذـاـ هوـ عـيـنـ التـوـحـيدـ، حـينـ يـرـىـ العـبـدـ حـقـيـقـةـ الـواـحـدـ مـتـجـلـيـةـ فـيـ كـلـ مـاـ سـوـاهـ مـنـ مـظـاهـرـ الـوـجـوـدـ، كـمـاـ قـالـ بـعـضـهـمـ: ما رـأـيـتـ شيئاً إلـاـ وـرـأـيـتـ اللهـ فـيـهـ.. فـهـوـ تـعـالـىـ، حـقـيـقـةـ كـلـ الـأـغـيـارـ الـمـتـفـرـقـةـ. وـالـىـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ أـشـارـ أـبـوـ مـديـنـ فـيـ أـبـيـاتـ تـقـولـ:

فـإـذـاـ نـظـرـتـ بـعـيـنـ عـقـلـكـ لـمـ تـجـدـ شـيـئـاـ سـوـاهـ عـلـىـ الـذـوـاتـ مـصـورـاـ
وـإـذـاـ طـلـبـتـ حـقـيـقـةـ مـنـ غـيـرـهـ فـبـلـيـلـ جـهـلـكـ لـاـ تـزـالـ مـعـثـرـاـ

وـهـوـ يـنـوـعـ نـفـسـ النـغـمـةـ التـوـحـيدـيـةـ، فـيـقـولـ فـيـ أـبـيـاتـ أـخـرـىـ: [الـكـاملـ]
الـلـهـ رـئـيـسـ لـاـ أـرـيـدـ سـوـاهـ هـلـ فـيـ الـوـجـوـدـ الـحـيـ إـلـاـ اللـهـ
ذـاتـ إـلـهـ بـهـاـ قـوـامـ ذـوـاتـنـاـ هـلـ كـانـ يـوـجـدـ غـيـرـهـ، لـوـلـهـ

ومـاـ ذـكـرـهـ أـبـوـ عـرـبـيـ عنـ شـيـخـهـ، تـلـكـ الـعـبـارـةـ الـلـطـيفـةـ التـيـ يـقـولـ فـيـهـاـ أـبـوـ مـديـنـ: الـمـرـيـدـ، مـنـ يـجـدـ فـيـ الـقـرـآنـ مـاـ يـرـيـدـاـ وـهـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ هوـ مـرـتـعـ الـصـوـفـيـ الـمـبـتـدـيـ، فـإـذـاـ قـرـأـ الـمـرـيـدـ الـصـوـفـيـ الـقـرـآنـ بـعـيـنـ قـلـبـهـ وـبـصـيرـتـهـ وـجـدـ فـيـهـ مـاـ يـشـفـيـ صـدـرـهـ وـيـرـدـ عـلـىـ كـلـ مـاـ يـطـرـأـ عـلـىـ عـقـلـهـ.. كـمـاـ تـشـيرـ الـعـبـارـةـ إـلـىـ مـنـهـجـ أـبـيـ مـديـنـ فـيـ تـرـبـيـةـ الـمـرـيـدـيـنـ، وـهـوـ مـنـهـجـ يـقـرـمـ عـلـىـ

الشريعة أولاً، ثم يصل بالشريعة إلى الحقيقة. وبهذا النهج الواضح القويم، تخرج في مدرسة أبي مدين الصوفية العديد من التلاميذ الذين بلغوا أعلى المراتب الصوفية، ويقال: إن عددهم يصل إلى الألف، ومن هنا لقب أبو مدين بلقب شيخ الشيوخ.

وفي مرحلة متقدمة من حياته، ترك أبو مدين الدنيا يأسراها وراء ظهره. وصار يعيش كالطير التي يدبر الله قوتها يوماً بسوم، مصداقاً لقوله ﷺ: «لو اتقىتم الله حق تقائه لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خمامساً وتعود بطاناً» وفي هذا المقام، ترك أبو مدين الحرفة التي كان يعمل بها، وجلس مع الله على الفتح مرتزاً بما يرسله الله أولاً بأول.. فاعتبر بعضهم عليه، لأن الصوفية كانوا دائماً أصحاب حرف ومهن، وليس من المعتاد عند مشايخ الطريق ترك التكسب بالعمل. وللتراث ابن عربي يروي ما جرى:

«فقيل له: يا أبو مدين، لم لا تتحترف؟ أو لم لا تقول بالحرفة؟ فقال: أقول بها... فقيل له: فلم لا تتحترف؟ فقال: الضيف عندكم إذا نزل بقومٍ واعزم على الإقامة، كم توقيت زمان وحاجة ضيافته؟ قالوا: ثلاثة أيام، وبعدها يحترف ولا يقعد عندهم حتى يحرجهم! قال أبو مدين: الله أكبر، أنصفونا! نحن أصحاب رينا تبارك وتعالى، نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة، فتعيّنت الضيافة، وأيام رينا كما قال: «كل يوم كالف سنة مما تعلدون، فضيافته بحسب أيامه، فإذا أقمنا عنده ثلاثة آلاف سنة ولم نحترف، يتوجه اعتراضكم علينا...» ثم يعقب ابن عربي قائلاً: «فانظر في هذا التَّسْـنِـس، إن كنت منهم!».

هكذا تفرّغ أبو مدين تماماً ل التربية المربيين ، ولم يشغل بأمر آخر. وتواجد عليه الأتباع، وانتشر أمره في بلاد المغرب، وصار يخرج على يديه الصوفية والأولياء الذين لقّنهم قواعد الطريق إلى الله؛ ومن بين تلاميذه

الألف، كان محيي الدين بن عربي الذي أوردنا بعض حكايات أبي مدين التي ذكرها في مؤلفاته . . ولقد راجعت «الفتوحات المكية» فلم أجده سفراً من أسفارها السبعة والثلاثين، يخلو من ذكر الشيخ أبي مدين بشكل أو بآخر، ويبعد أن ابن عربي كان يريد أن تحلّ برؤسات أبي مدين على جميع أسفار الفتوحات .

ويبدأ الصدام بين أبي مدين والحكام، كما يحدث بين الصوفية وأرباب الحكم الدنيوي . وهي مسألة متكررة الوقوع في تاريخ الإسلام، ربما نخصص لها - قريباً - بحثاً مفرداً يتناول «العلاقة بين الصوفية والحكام» إذ هي علاقة دقيقة ومتشعبة، تقتضي وقفةً طويلة . . المهم الآن، أن بعض الفقهاء سخطوا على أبي مدين وصيته الذي ذاع، فوشوا به، ودسوا عليه عند سلطان الموحدين «يعقوب المنصور» وقالوا له، بحسب رواية المؤرخين: إنا نخاف منه على دولتكم، فإن له شبهة بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد . .

ويصور لنا ابن عربي تلك الفتنة في قصة رمزية يرويها بأسلوبه الخاص، جاعلاً لرموزه الصوفية دلالة بعيدة . . فيقول في الفتوحات:

«ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل (فاف) فمررنا بالحية المحدقة به، فقال لي البَدَلُ: سَلِّمْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا سَتُرُّكَ السَّلَامِ افْسَلْمَنَا عَلَيْهَا، فَرَدَّتْ ثُمَّ قالت: من أَيَّ الْبَلَادِ؟ فقلنا: من بجایة . فقلت: ما حال أَبِي مَدِينِ مَعَ أَهْلِهِ؟ فقلنا لها: يرمونه بالزندقة . فقلت: عجباً وَالله لَبْنِي آدَمَ، وَالله مَا كُنْتَ أَظْنَنَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوَالِي عَبْدًا مِنْ عَبْدِهِ، فَيَكْرَهُهُ أَحَدٌ . . فقلنا لها: وَمَنْ أَعْلَمُ بِهِ؟ فقلت: يَا سَبْحَانَ اللَّهِ، وَهُلْ عَلَى الْأَرْضِ دَاهِيَّةٌ تَجْهَلُهُ، إِنَّهُ وَالله مَمْنُ اتَّخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلِيًّا، وَأَنْزَلَ مَحْبَبَهُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَلَا يَكْرَهُهُ إِلَّا كَافِرٌ أوْ مَنَّاقِ . .

ونعود لما جرى مع أبي مدين في محنته هذه، لنرى كيف انتهت المحنة بوفاة أبي مدين الغوث.. يقول المقرى في تاريخه «نفح الطيب»: إن يعقوب المنصور اهتم بأمر الشيخ، وأرسل في طلبه ليختبره، وأمر صاحب بجایة بأن يحمل الشيخ إليه. كان أبو مدين آنذاك قد تقدم في السن، والسفر يشق عليه، فسخط مریدوه وغضبو من هذا الاستدعاء. فأسكنتهم الشيخ وقال لهم: «إن منيتي قربت، ولغير هذا المكان قُدِرْت أن أموت، ولا بد لي منه، وأناشيخ كبير ضعيف لا قدرة لي على الحركة، فبعث الله من يحملني إلى حيث أموت برفق، لكنني لن أرى السلطان ولن يراني» فلما سمع المریدون منه ذلك، طابت نفوسهم، وارتحلوا به إلى السلطان على خير محمل..

وبينما هم في الطريق، ظهرت من بعيد رابطة صوفية تسمى «رابطة العباد» فقال أبو مدين لاصحابه: ما أصلح المكان للرقاد؟ ومرض مرضًا شديداً، وظل يردد «الله، الله» فكان آخر كلامه: الله الحق.. وحملوا جثمانه ليدفنوه في «العبد» مدفن الأولياء، ولم يَرَ السلطان^(١).

* * *

ترك أبو مدين الغوث كتاباً واحداً هو «أُنس التوحيد» بالإضافة إلى مجموعة من القصائد الصوفية التي جمع الدكتور عبد الحليم محمود ببعضها في كتابه اللطيف عن أبي مدين... وأشار تلك القصائد، هي تلك القصيدة التي شرحها حكيم الصوفية «ابن عطاء الله السكندري» وقام الشيخ الأكبر [ابن عربي] بتخميصها. تقول القصيدة:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا^(٢)
هم السلاطين والساسات والأمرا
فاصحبهم وتأدب في مجالسهم وخل حظك مهما قدموك وزرا

(١) قارن واقعة وفاة أبي مدين، بوقائع وفاة كل من: نجم الدين كبرى - الششتري!

(٢) الفقراء: الصوفية من أهل الطريق.

واعلمُ بأن الرضا يختصُ مَنْ حَضَرَ
 لا عِلْمَ عَنِّي وَكُنْ بِالْجَهْلِ مُشْتَرَا
 عَيْبًا بَدَا بَيْنَا لَكَنَهُ اسْتَشَرَا
 وَقُوَّمْ عَلَى قَدْمِ الْإِنْصَافِ مُعْتَسِلِرَا
 وَجْهَ اعْتِذَارِكَ عَمَّا فِيكَ مِنْكَ جَرَى
 فَسَامِحُوا وَخَلُوْا بِالْسُّرْفَقِ يَا فُقَرَا
 فَلَا تَخْفَ دَرَكًا مِنْهُمْ وَلَا خَسَرَا
 جَسًا وَمَعْنَى ، وَغَضْنَ الْطَّرْفِ إِنْ عَثْرَا^(١)
 يُرَى عَلَيْكَ مِنْ اسْتِحْسَانِهِ أَشْرَا
 عَسَاهُ يَرْضِي ، وَحَادِرُ أَنْ تُرَى ضَجْرا
 يَرْضِي عَلَيْكَ فَكُنْ مِنْ تَرْزِيَهُ حَلِيرَا
 وَحَالُ مَنْ يَدْعُهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى^(٢)
 أَوْ تَسْمَعُ الْأَذْنَ مِنِّي عَنْهُمْ تَبَرَا
 عَلَى مَوَارِدَ لَمْ أَلْفَ بِهَا كَسَرَا
 بِمَهْجِتِي وَخَصْوَصَا مِنْهُمْ نَقْرَا^(٣)
 يَقْنُ الْمَكَانُ عَلَى آثَارِهِمْ عَطِرَا
 حُسْنُ التَّسَالُفِ مِنْهُمْ رَاقِي نَظَرَا
 مَمْنُ يَحْسُرُ ذِيْسُولَ الْعَزِّ مُفْتَخِرَا
 وَذَنْبَنَا فِيهِ مَغْفُورًا وَمُغْتَسَرَا
 مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مَنْ أُوفِيَ وَمَنْ نَذَرَا

وَاسْتَغْنَمُ الْوَقْتَ وَاحْضُرْ دَائِمًا مَعْهُمْ
 وَلَازِمُ الصَّمَتِ إِلا إِنْ سَلَتْ فَقْلَ
 وَلَا تَرَعِيبَ إِلا فِيكَ مُعْتَقَدَا
 وَحُطَّ رَأْسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلَا سَبِّ
 وَإِنْ بَدَا مِنْكَ عِيْبٌ فَاعْتَرَفْ وَأَقْمَ
 وَقْلَ عَيْبَيْدُكُمْ أُولَى بِسَقْفِ حَجَّكُمْ
 هُمْ بِالْتَّفَضُلِ أُولَى وَهُوَ شَيْمَتُهُمْ
 وَبِالْتَّغْنِيَ عَلَى الْإِخْرَانِ جُذْ أَبْدَا
 وَرَاقِبُ الشَّيْخِ فِي أَحْوَالِهِ فَعَسَى
 وَقَدْمُ الْجَهَدِ وَانْهَضْ عَنْ دِرْخَمَتِهِ
 فَفِي رَضَاهُ رَضَا الْبَسَارِي وَطَاعَتِهِ
 وَاعْلَمْ بِسَأَنْ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةً^(٤)
 مَشَى أَرَاهُمْ وَأَنَّى لَيْ بِرَؤِسَتِهِمْ
 مَنْ لَيْ وَأَنَّى لَمَثْلِي أَنْ يَرْأِسَهُمْ
 أَحَبَّهُمْ وَأَدَارِيهِمْ وَأَوْثَرَهُمْ
 قَوْمٌ كَرَامُ السَّجَایَا ، حِيثُمَا جَلَسُوا
 يَهْدِي التَّصَوُفَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ طَرَفا
 هُمْ أَهْلُ وَدِي وَأَحْبَابِي الَّذِينَ هُمْ
 لَا زَالَ شَمْلِي بِهِمْ فِي اللَّهِ مُجْتَمِعًا
 ثُمَّ الْصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا

* * *

(١) يقصد: أن يغض الصوفي طرفه عن عثرات إخوانه في الطريق، فلا يلومهم ويترافق معهم.

(٢) دارسة: منظمة. والمعنى المراد: إن طريق الصوفية يكاد ينحي ويغيب.

(٣) الإشارة إلى ما يلقاه أهل الطريق من مصاعب ومحن على يد أهل الزمان.

(٤) الإشارة إلى خواص الأولياء المعروفيين اصطلاحاً بالواصلين.

بالإضافة إلى ما ذكره ابن عربى عن أبي مدين فى مؤلفاته التي ذكرناها فيما سبق، يمكن الرجوع إلى المزيد من ترجماته لى :

التشوف لابن الزيات - سلوة الأنفاس للكتانى - أنس الفقير لابن قنفذ -
روض القرطاس لابن أبي زرع - نفع الطيب للمقرى - شذرات الذهب -
عنوان الدرية للغبريني - نيل الابتهاج .

ومن البحوث المعاصرة: أبو مدين الغوث للدكتور عبد الحليم
محمود، أبو مدين وابن عربى للدكتور عبد الرحمن بدوى، مقالة «أبو مدين»
بدائرة المعارف الإسلامية .

رشيد الدين بن خليفة (المتوفى ٦١٦ هجرية)

هُنَّ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا تَفْتَرُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ عَزَّزُوا مَسْرُوكَ
[الوافر]

هذا الرجل لا نجد له ذكراً في المراجع والمصادر الخاصة بتاريخ التصوف، وإنما نجده في مصادر تاريخ العلوم العربية! والسر في ذلك، أن شهرته في الكحالة (طب العيون) غطت على كونه صوفياً وشاعراً.

والترجمة الوحيدة الواافية لرشيد الدين بن خليفة، وضعها ابن أخيه المؤرخ المشهور موفق الدين بن أبي أصيبيعة في كتابه (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) ومن خلال هذه الترجمة، نتعرف على تصوف رشيد الدين وشعره.

في الوقت الذي عاش رشيد الدين فيه، كانت مصر والشام دولة واحدة يحكمها الأيوبيون. وفي ظل هذه الدولة عاش خليفة بن يونس بن أبي القاسم الخزرجي، وأنجب ولديه القاسم وعلي.. وصارا من أطباء العيون، وخدما بالطب في بلاط السلاطين الأيوبيين. وكان (القاسم) مقتضراً على الطب، وكذلك صار ابنه موفق الدين صاحب عيون الأنبياء.. أما (علي) المكنى برشيد الدين، فقد جمع بين عدة علوم.

بدأ رشيد الدين الاشتغال بالعلم على يد العلامة أبي التقي العرضي، فحفظ القرآن وأتقن علم الحساب. ثم تعلم الطب على يد رئيس الأطباء

جمال الدين بن أبي الحوافر، وتحصص في طب العيون على يد القاضي نفيس الدين الزبير. وتلقى الفلسفة وعلوم اللغة من موقف الدين عبد اللطيف البغدادي، الذي كان صديقاً لوالده. كما تعلم الفلك من ابن الجعدي، والموسيقى من ابن الديجور وصفي الدين التبان.. وهكذا صار الرجل موسوعة.

ويبدو أن هذه العلوم التي احتشدت برأس رشيد الدين لم تكفه.. فها هي طموحاته تحلق بأجنحة خرافية الروعة،وها هي روحه تطلب من الحقائق ما يعز وجوده، وهو هو اليأس من الظاهر وعلومه يصادمه. فيقول: [الطویل]

ثلاثون عاماً من حياتي مضت وما
تعاندني الأيام عمداً وإنني
صبورٌ على البلوى منيُّ الجوانبِ
تقربت من حظي بكل فضيلةٍ
وفضلٍ فجازاني بضميق المذاهبِ
ألا إن يأس النفس أوفق للفتنِ
وأطيب من نجوى الأماني الكواذبِ

وكان لا بد لهذا النزوع اليائس من الأيام، أن يقف بصاحبه على اعتاب التشوف، ويدخل به إلى عالم التصوف.. التصوف الذي وصفه الأوائل بأنه: الإقبال على الخالق، واليأس مما بآيدي الخلاائق.

وعاش رشيد الدين بن خليفة بعقل طيب وقلب متصوف، ولم تنته حياته إلا وقد لبس (خرقة الصوفية) وهي علامة الدخول التام في الطريق الصوفي. يقول ابن أبي أصيبيعة: واجتمع عمي في دمشق بالسيد شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وألبسه خرقة التصوف، وكتب له معها:

«هذا ما أنعم به المولى السيد الأجل، الإمام العالم، شيخ الشيوخ.. ابن حمويه، أدام الله تأسيده، من إلbas خرقة التصوف على مريده: عليَّ بن

خليفة بن يونس الخزرجي الدمشقي، وفقه الله إلى الطاعات.. وكان لباسه الخرقة، أعاد الله عليه من بركاتها، وعلى جميع من تشرف بها، في العشرين من شهر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة بدمشق المحرورة».

ولرشيد الدين مجموعة من المؤثرات الذوقية، أهمها جمیعاً وصیتان:

[وصیة أول النهار]

«قد أقبل هذا النهار وأنت فيه مهياً لكل فعل، فاختر لنفسك أفضلاها لتوصلك إلى أفضل الرتب، وعليك بالخير فإنه يقربك من الله ويحببك إلى الناس. وإياك والشر، فإنه يبعدك عن الله ويغضبك إلى الناس. وافعل ما تحاسب نفسك عليه عند انقضاء هذا النهار. والحذر من أن يغلب شرك على خيرك. وليس الفاضل من بقي على حالة الطبيعة مع عدم المؤذيات، بل الفاضل من بقي عليها مع وجود المؤذيات. والانقطاع عن الناس أكبر مانع للأذى. وأقبل وصايا الأنبياء، واقتد بأفعال الحكماء. وعليك بالصدق، فإن الكذب يصغر الإنسان عند نفسه فضلاً عن غيره. واحلمْ تُشكِّر، وتفضلْ فإن الحقد يعجلُ الهم، ويوقع في العداوة والشروع، وكذلك الحسد. وتجنب الأشرار تُكَفِّرُ الأذى، وابعد عن أرباب الدنيا تُكَفِّرُ الأشرار. واقنع من دُنياك بما تدفع به ضرورة بدنك. واعلم أن نهارك هذا قطعة تذهب من حياتك، فانفقها فيما يعود عليك نفعه. وإذا اندفعت ضرورة بدنك، فاقض باقي نهارك في مصلحة نفسك، وافعل بالناس ما تشتهي أن يفعلوه بك. وإياك والغضب والمبادرة إلى الانتقام من المُغضِّب أو الانفصال عنه، فإنه ربما وقع في الندم. وعليك بالصبر، فإنه رأس كل حكمة».

[وصیة أول الليل]

«قد انقضى نهارك بما فيه، وأقبل عليك هذا الليل. وليس لك فيه فعلٌ بدنيٌ ضروريٌ، ف ساعطف على مصلحة نفسك بالاشغال في العلم، والتفكير

في الاطلاع على الحقائق. ومهما استطعت اليقظة في الليل فافعل، فإذا أردت النوم فاجعل في نفسك ملازمة ما أنت فيه، لتكون روياك من هذا الجنس. وافعل ما تحاسب نفسك عليه عند الصباح. واحرص أن تكون في غدك أفضل من يومك المُنْقَضي. وإياك أن تجذبك الطياع إلى الفكر فيما عايهته في نهارك من أحوال أرباب الدنيا، فتضيّع وقتك، وتُنفتح لك أبواب الخداع والمحيل والمكر في تحصيل أمور الدنيا، وتظلم نفسك، وتُفسد حاليك، وتبعـد عن الحقائق، وتكتسب الأخلاق المذمومة، ويعـر تخلصك منها. لكن اعلم أن هذه أعراض زائلة، وأن ضرورات الإنسان قليلة جدًا، وفـكـر فيما يعود على نفسك نفعـه. وتهـيـأ للقاء الله، فإن علمـك بـعـوبـتك متى يكون، مستور عنـكـ، وما جاءـكـ فيـ أنـ يأتيـ يومـ آخرـ عـلـيـكـ، أقوـيـ منـ وهـكـ أنـ تـموـتـ هذهـ اللـيـلـةـ، فـوـدـعـ بالـثـيـاتـ عـلـىـ ماـ تـنـتـفـعـ بـهـ بـعـدـ المـفـارـقـةـ».

وإذا تأملنا هاتين الوصيـتينـ، نجد العـدـيدـ منـ الإـشـارـاتـ الـبـاطـنـةـ لمـجمـوعـةـ المـفـاهـيمـ الـإـسـلـامـيـةـ التـيـ يـتـعلـقـ بـهـاـ المـتصـوفـةـ، كـالـاقـتـداءـ بـالـأـنـبـيـاءـ وـالـحـكـماءـ، وـضـرـورةـ الـاشـتـغالـ بـالـعـلـمـ وـالـتـفـكـرـ، وـوضـعـ الـمـوـتـ نـصـبـ الـعـيـنـ..ـ كـماـ نـجـدـ فـيـ السـوـصـيـتـيـنـ تـأـكـيدـاـ لـأـحـوـالـ الـصـوـفـيـةـ وـمـقـامـاتـهـمـ، كـالـمـحـاسـبـةـ، وـالـخـلـوةـ، وـالـانـقـطـاعـ عـنـ النـاسـ، وـالـصـدـقـ، وـالـحـلـمـ، وـاحـتـمـالـ الـأـذـىـ، وـالـسـهـرـ، وـالـزـهـدـ، وـالـصـبـرـ..ـ وـكـلـهاـ أـحـوـالـ وـمـقـامـاتـ، أـفـاضـ أـهـلـ الـطـرـيقـ الـصـوـفـيـ فـيـ شـرـحـهـاـ وـالـتـبـيـهـ إـلـيـهـاـ، باـعـتـبارـهـاـ مـرـاتـبـ وـدـرـجـاتـ فـيـ السـلـمـ الـرـوـحـيـ الصـاعـدـ مـنـ الـخـلـقـ إـلـىـ الـحـقـ تـعـالـىـ.

وفي سنة ٦٦٦ هـ، وصل إلى رشيد الدين بن خليفة استدعاء من الملك الصالح، ليتوجه إلى مدينة بصرى (وهي بلدة بحوران) كي يعالج والدته، ويحدد من خطر وباء عظيم انتشر هناك. فلبى رشيد الدين، وذهب لعلاج والدة الملك، فشفيت في مدة يسيرة. وأنعموا عليه هناك بالذهب

والخلع التفيسة، لكنه لم يستمتع بتلك النعم.. فقد عرضت له حمى حادة، فرجع إلى دمشق مريضاً، ولم ينزل المرض يشتد عليه، حتى توفي في شهر شعبان من هذه السنة، وهو لم يتعد الثامنة والثلاثين من عمره.

وعلى الرغم من الحياة القصيرة التي عاشها رشيد الدين، فقد ترك بعد وفاته مجموعة من المؤلفات المهمة، منها: الموجز المفيد في علم الحساب - كتاب في الطب وأموره الكلية - كتاب طب السوق - مقالة في نسبة النبض وموازنته إلى الحركات الموسيقية - كتاب الأسطقسات - تعليق ومحربات طبية.. أما في الشعر الصوفي، فله مجموعة أبيات تذوب رقة. فمن أبياته التي يشكو فيها تباريحة وجده:

[الكامل]

ما زا [تریدا] من مشوقي عانی
إن الفراق هو الممات الثاني
فُجِعْتُ في قلبي وفي خلاني
فأضاء ممن سار في الأطعان^(١)
حتى فعلت وغرنني سلواني
أنى وقد صار اللقاء أمانی؟

يا صاحبِ سلا الهسو وذراني
لا تَسْلَاه عن الفراق وطعمه
نادي الحداة^(٢) دنا الرحيل فودعوا
وسرت ركائبهم وقد غسل الدجي
ما كنت أعلم أن بعده قاتلي
ويكبت وجداً بعد ذاك فلم أجذ

وبعد هذه البكائية السرقة، يتبدل الحال.. فرر رشيد الدين وهو يصف بهجة مجلس صوفي اجتمع فيه أهل العلم والفضل بمدينة بعلبك:

[المنسرح]

سقياً ليوم تم السرور بنا فيه وكأس الشمول^(٣) نجمتنا

(١) الحداة: مرشدو طريق الإبل عند سفرها في الصحراء، وهو هنا إشارة إلى انتساب موعد الرحيل.

(٢) الأطعان: المفرد (ظعن) وهو الهروج الذي يكون فوق الإبل.

(٣) الشمول: الخمر.. وهي هنا رمز للنشرة بصحبة الأخبار.

ونحن في لذة ونيل مُنى
يه يحلُّ الجنيد^(١) لافتنا
وكأس راحٍ وراحة وغنا
علمٌ وفضلٌ ورفعة وسنا
لطبيه العين تحسُّد الأذنا
أولو عفافٍ لا يضمرون خنا^(٢)
صنع له في الأنعام طيب ثنا
باسم غزالٍ أضحي يغازلنا
كأنها كفٌ ربٌ منزلا
أرجائه التارٌ فهي تدقّنا
طيرٌ كصبٌ لديه ذاب ضنا
في النار قلبٍ الذي قد ارتهنا
للهم حيَث السرور ذكرنا
نبديه خسوف الشوّاة تسمعننا
إلا عيون الحباب ترمقنا
خوفاً وإن كان سرُّنا علننا
بسعيٍ لك أم تعود لتنا

والدهر ولت عنّا حوادثه
بمجلسِ كاملِ المحسن لرو
فكاهةٌ بيننا وفاكهه
بين ندامى مثل الشموس لهم
حديثهم لا يملّ سامعه
إخوانٌ صدقٌ صفت ضمائرهم
أهل سماحٍ ما إن يزال لهم
تنشدُ أغزالنا وتلغزها
في يوم دجن^(٣) تهمي سحابه
وعنده منقلٌ تلاؤ في
تجاهه شادن وفي بيده
كأنه إذ غدا يقبله
ظللت كؤوس المدام طاردة
ئيرٌ ما بيننا الحديث ولا
فما ترانا عينٌ لدى بصر
وأطيب العيش ما نكتمه
يا يومنا هل نراك ثانية

ومرة أخرى، يستبد الوجد بقلب المحب، فينوح على بُعد الأحبة مشيراً
اليهم - على طريقة الصوفية - بسكنٍ نجد.. . فيقول: [الطوبل]

(١) الجنيد: هو أبو القاسم بن محمد الخاز القواريري، المتوفى ٢٩٧ هجرية.. . من كبار مشايخ الفقه والتصوف، كان يلقب: شيخ الطائفة.

(٢) الخنا: الفسق والفحجر.

(٣) الدجن: الظلام.

وَنُحْتَ عَلَى نَجْدِي وَقَدْ أَفْسَرْتَ نَجْدَ
تَفِيسَ وَقَالُوا مَتْ فَهْذَا هُوَ الْفَقْدُ
وَبِالرَّغْمِ مِنِّي أَنْ يَطْوُلْ بِهِ الْعَهْدُ

أَسْفَتُ وَمَا يَجْدِي التَّأْسِفُ وَالْوَجْدُ
وَسَارَ بِمَنْ أَهْوَى الرَّكَابَ وَادْمَعَ
حُرْمَتُ لِذِيَّ الْعِيشِ بَعْدَ فَرَاقَهُ

ثُمَّ يَجْمِعُ رَشِيدُ الدِّينَ بَيْنَ الْوَصْلِ وَالْهَجْرِ فِي أَيَّاتٍ يَشْرَحُ فِيهَا أَلْمَ
الْهَجْرِ بَعْدَ الْوَصْلِ، وَكَيْفَ يَفْتَضُّ الْمَحْبُ بِدَمْعَهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ الْمَحْبُوبَ أَنْ
[الْكَامل]

يَرْحَمْ قَلْبَهُ .. فَيَقُولُ:

سِرُّ الْمَحْبُ بِدَمْعَهِ إِعْلَانُ
أَرَأَيْتَمَا يَا صَاحِبِيْ فَتَّيْ تَذَلُّ
مَا كَنْتُ مَمْنُ يَسْتَرْقُ فَوَادِهِ
هَلْ تَرْحَمُ الصَّبَّ الْكَثِيبَ بِسَزْوَرَةِ
تَلْقَى فَتَّيْ رَحْبَ الْفَسَادِ ذَا عَفْفَةِ
فَمَتَّ يَكُونُ مَعَ الْوَرَى كَتْمَانُ
لَهُ الْأَسْوَدُ تَذَلُّهُ الْغَرْلَانُ
عَشْقًا وَلَكُنَّ الْهَوَى سُلْطَانُ
بِاَمْنِ جَمِيعِ فَعَالِهِ إِحْسَانُ
طَلَقَ الْمُحْيَا قَلْبُهُ وَلَهَانُ

* * *

الترجمة الوحيدة لرشيد الدين بن خليفة، ومقططفات من شعره، توجد
في الجزء الأخير من (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيحة.

نجم الدين كبرى (المقتول ٦١٨ هجرية)

الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة كالذرّ.

.. والآن، جاء أوان الوقوف عند صوفي عازم، اخترق المراحل الممتدة من الخلق إلى الحق، محلقاً في سماء الولاية بأجنحة أسطورية الروعة. فصار متفرداً في طيرانه، متجرداً عن أكوانه.. وظل على اعتاب الباب الإلهي حتى تجرع مُر الصبر، فانفجر بالعشق. فكان في حياته ووفاته، طامة كبرى.

هو الإمام العلامة القدوة المحدث الشهيد، شيخ حراسان ونجم الكبراء، أحمد بن عمر بن محمد الخوارزمي الخيوقي .. المعروف بنجم الدين أبي المجانب الكبرى. قال المؤرخون: المخيفي نسبة إلى (خيوق) إحدى قرى خوارزم، والكبرى نسبة إلى (الطامة الكبرى) حيث كان في صغره يسبق أقرانه في فهم غواصض المشكلات، وكانت له الغلبة دائماً في المناظرات، فلقبوه بالطامة الكبرى. ثم كثر الاستعمال، فخذلوا كلمة (طامة) وبقيت (كبرى) تُشير إليه.

بدأ نجم الدين حياته بدراسة علوم الدين، خاصة علم الحديث، وخرج من بلاده خيوق لطلب العلم، فسافر إلى همدان ومنها إلى مصر، وفي الإسكندرية أتم دراسته لعلم الحديث النبوى، فرجع إلى بلاده.. وفي ليلة

رائفة، رأى في المنام أنه أمام النبي ﷺ فطلب منه أن يحدّ له كُنية يُعرف بها.. فقال: أنت أبو الجناب! قال نجم الدين: مخففة أم مشددة؟ فقال: بل مشددة.. فأدرك نجم الدين كيري أن تلك الرؤيا هي إشارةً سماوية لاجتناب زخارف الحياة، وأمر بالتجرد وسلوك طريق الصوفية. وقد أشار بعضهم إلى تلك الواقعة بقوله:

قد قال له رسولنا في الرؤيا إِذْ شَاهَدَهُ، أَنْتَ أَبُو الْجَنَابِ^(١)

وخرج نجم الدين مرة أخرى من موطنه، ليطلب هذه المرة علوم الحقائق.. ويبحث عن شيخ يرشده في الطريق، فالتقى في الأهواز بالشيخ إسماعيل القصري، وصحبه مدة، ثم أشار إليه بصحبة الشيخ عمار بن ياسر، الذي أشار إليه بدوره إلى نزول مصر للقاء الشيخ الكبير روزبهان البقلبي^(٢).. وكانت لنجم الدين في صحبة هؤلاء المشايخ وقائع وطرائف وكرامات، يضيق المقام هنا عن التعرض لها. وقد كان نجم الدين كثير الإشارة إلى فضل مشايخه، فكان يقول: أخذت علم الطريقة عن روزبهان، والعشق عن ابن العصر، وعلم الخلوة والعزلة عن عمار، والخربة عن إسماعيل القصري.

واستقر المقام بنجم الدين بخوارزم، وأقام بها رباطاً صوفياً، اجتمع فيه المریدون.. يقول الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ما نصه: وصار نجم الدين شيخ تلك الناحية، وكان صاحب حديث وسنة، ملجأ للغرباء، عظيم الجاه، لا يعرف في الله لومة لائم.

(١) ورد هذا البيت في العديد من المصادر الخاصة بنجم الدين كيري، والراجح أنه مترجم عن الفارسية، وهو غير موزون على البحور العربية.

(٢) الشيخ روزبهان البقلبي الفارسي، المعروف بلقب (شطاح فارس) من أعمق صوفية الفرس. عاش فترة طويلة من حياته في الإسكندرية والقاهرة، حتى عرف باسم روزبهان المصري.. ترك عدة رسائل صوفية، وكانت وفاته سنة ٦٠٦ هجرية.

وعلى يديه، تخرج العديد من مشاهير الصوفية الذين نالوا بعد ذلك مكانة صوفية متميزة، حتى سُمي من كثرة تلاميذه النابغين (صانع الأولياء!!) ومن هؤلاء التلاميذ اشتهر: فريد الدين العطار، مجد الدين البغدادي، سيف الدين البخاري، سعد الدين الحموي، كمال الدين الخجandi، نجم الدين الرازى، بهاء الدين الرومي والد مولانا جلال الدين صاحب المثنوى.

وكان نجم الدين معاصرًا لفخر الدين الرازى، الفقيه والمتكلم العظيم الشأن.. وتروى المصادر العديدة من وقائع لقائهما، ومنها تلك القصة التي يذكرها طاش كبرى زاده: «سمعت رجلاً ثقة عالماً عابداً زاهداً.. أنه حكى أن الإمام الرازى لما دخل هرآة، أتاه منْ بها من العلماء والصلحاء والسلطانين والأمراء، وسأل يوماً: هل بقي أحدٌ تختلف عن زيارتنا؟ فقال أصحابه: نعم، بقي رجل صالح منقطع في زاوية! قال الرازى: أنا رجل واجب التعظيم، وأنا إمام المسلمين، فلماذا لم يزرنِ؟ فقالوا لذلك الرجل كلام الإمام الرازى، فما تكلم بشيء أصلًا، ووقع بينهما الخلاف. فصنع أهل البلدة طعاماً، فدعوهما، فأجابا الدعوة، واجتمعا في حديقة. وسأله الإمام عن سبب تخلفه عن زيارته فقال: أنا رجلٌ فقير لا شرف في زيارتي، ولا نقص في تخلفي عنها! قال الإمام: هذا جواب أهل الأدب (يقصد الصوفية) فقل لي حقيقة الحال.. فقال الرجل: لأي شيء وجبت زيارتك؟ قال: أنا إمام المسلمين، وواجب التعظيم! قال: إن افتخارك هو بالعلم، ورأس العلوم معرفة الله تعالى، فكيف عرفته عز وجل؟ قال: بمائة من البراهين.. قال الرجل: البرهان لإزالة الشك، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك، فضلاً عن الحاجة إلى البرهان. فاثر هذا الكلام في قلب الإمام الرازى،

فتاب في ذلك المجلس على يديه ودخل الخلوة.. قال الناقد للحكاية: «وكان ذلك الرجل هو الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكبّرى قدس الله سره».

وترك نجم الدين عدة مؤلفات، منها: رسالة الخائف الهائم من لومة اللائم - فوائع الجمال وفوائع الجلال - منازل السائرين ومنهاج السالكين .. وهي مؤلفات صوفية رائعة، نالت عند أهل الطريق مكانةً متميزة، حتى قيل: إن رسالته (الخائف الهائم) لم يؤلف في علم الطريقة مثلها. ولكي نتعرف على أسلوب نجم الدين، نقرأ هذه الفقرة من كتابه (فوائع الجمال) الذي نشره المستشرق فريتز ماير، وطبع في فسبادن سنة ١٩٥٨ .. يقول الشيخ:

«الولاية إنما تتم في الدرجة الثالثة للسيار. الدرجة الأولى التلوين، والدرجة الثانية التمكين، والدرجة الثالثة التكوين .. أو نقول: الدرجة الأولى العلم، ثم الحالة، ثم الفناء عن الحالة في المحوّل. أو نقول: الدرجة الأولى مشاهدة الصور، ثم مشاهدة المعاني، ثم الفناء عن المعاني في معنى المعاني. أو نقول: التجريد، ثم التوحيد. أو نقول: علم اليقين، ثم حق اليقين، ثم عين اليقين .. فعلم اليقين مكتسب، وحق اليقين حالة، وعين اليقين فناء. أو نقول: العبادة ثم العبودية ثم العبودة. أو نقول: طلب العبد، ثم قبول الحق للعبد، ثم الفناء في الحق. أو نقول، كما قال الحسين بن منصور (الحلاج): قطع العلاقة، ثم الاتصاف بالحقائق، ثم الفناء عن الحقائق في حق الحقائق، أو نقول: التعبد، ثم العبودية، ثم الحرية. أو نقول: التذكرة، ثم الذكر، ثم الاستغراق في المذكور. أو نقول: عبارة، ثم إشارة، ثم غيب. أو نقول: حضور، ثم غيبة، ثم إحضار - أو نقول: شهود، ثم غيبة، ثم إشهاد - التخلّي، ثم التجلّي، ثم التولي .. والله يتولى الصالحين».

كما يذكر المؤرخون أن الشيخ وضع تفسيراً للقرآن في اثني عشر مجلداً، ومع كثرة الإشارة لهذا التفسير في المصادر التاريخية؛ إلا أنه اليوم

مفقود، ولا توجد منه مخطوطات معروفة^(١).

وهناك نزاع حول حقيقة مذهب نجم الدين كبرى، ذلك أن مؤرخي الشيعة يصررون على أنه من الشيعة الإمامية الثانية عشرية - الذين يقولون بإمامية الثاني عشر رجلاً من نسل عليّ بن أبي طالب - فنجد الخوانساري في (روضات الجنات) يؤكّد مذهبها الشيعي الإمامي استناداً إلى عدد تلاميذه، فيقول: «إن المرشدين على الحقيقة لما كانوا اثني عشر، هم أئمة مذهب الحق الإمامي، فلا جرم أنه لم يصح طول حياته من المرشدين والمستشارين إلا هذه العدة...» ومن الناحية الأخرى، يؤكّد مؤرخو السنة أنه كان سُنِّياً، فنرى ابن العماد الحنبلي في (شندرات الذهب) وابن نقطة في (التقييد) والذهبي في (سير أعلام النبلاء) يؤكّدون أنه كان فقيهاً سُنِّياً على مذهب الإمام الشافعى. والحقيقة، فإن المنطقة التي عاش فيها نجم الدين، كانت في عصره منطقة سُنِّية، ولم تعرف المذهب الشيعي إلا في وقت متأخر... وبذلك، فلا عبرة بما رُوي عن القطران من أنه «ذهب مع والده أيام الطفولة إلى الشيخ نجم الدين الكبّرى، فلقيته أولاً أسماء الأئمة، ثم الذكر، وقال له: هذا التلقين عن شيخي، عن شيخه، إلى أمير المؤمنين عليه السلام، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله تبارك وتعالى، فلا تُظهر هذا السر إلا إلى منْ جرّبه من المرشدين!».

ونأتي لتلك اللوحة الأخيرة في حياة نجم الدين كبرى، وهي أكثر لوحاته تفجراً وأمتلاء بالطابع الدرامي العنيف... فقد اصطدم الشيخ بأعظم موجة في العصور الوسطى الإسلامية (الشتار) تلك الموجة التي انهارت معها الحصون والقلاع حتى انتهت بفاجعة لا مثيل لها في التاريخ الإسلامي

(١) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، أخبرني الدكتور حسن عباس زكي - نائب رئيس وزراء مصر الأسبق - أن لديه نسخة من هذا التفسير في مكتبه الخاصة.

(سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية) حيث كان التتار ناراً موقدة اندفعت من مشارق العالم الإسلامي لتأكل الأخضر واليابس، وكان المسلمون في المشرق - كما ذكر ابن تيمية في بعض رسائله - قد تسلط عليهم الخوف والرعدة، حتى إن الجماعة منهم كانوا يلقون المقاتل التتري ومعهم سيفهم، وهو بلا سلاح، فتسقط من أيديهم السيف ويدبحهم بها وهم يتفضضون من فرط الرعب.. وكان انكسار الموجة على يد مماليك مصر، أما بداء اندفاعها فكان بخوارزم، حيث كان نجم الدين يقيم وقد بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة.
ولترك ابن العماد يروي :

«أبىتشهد الشيخ رضى الله عنه بخوارزم فى فتنة التتار، وذلك أن سلطانها قال للشيخ وأصحابه (وكانوا نحو ستين): ارحلوا إلى بلادكم، فإنه قد خرجت ناراً من المشرق تحرق إلى قرب المغرب، وهي فتنه عظيمة ما وقع في هذه الأمة مثلها... فقال بعضهم للشيخ نجم الدين: لو دعوت برفعها؟ فقال: هذا قضاءٌ محكمٌ لا ينفع فيه الدعاء. فقالوا له: أتخرج معنا؟ فقال: ارحلوا أنتم، فإني سأقتل ها هنا.

ولما دخل الكفار البلد، نادى الشيخ وأصحابه الباقيون (الصلاة جامعة) ثم قال: «قوموا نقاتل في سبيل الله...» ودخل بيته، ولبس خرقه شيخه، وحمل على العدو فرماهم بالحجارة ورموه بالنبل، وجعل يدور ويرقص حتى أصابه سهم في صدره، فنزعه ورمى به نحو السماء، وفار الدم وهو يقول: إن أردت فاقتلتني بالوصال أو بالفارق! ثم مات ودفن في رباطه، رحمة الله تعالى...»

.. وإنني لأتساءل أمام هذه اللحظة العارمة: هل أراد الشيخ بموته أن يحقق قدرًا مكتوبًا؟ أم أراد أن يضرب للمسلمين مثلاً في الاقتحام الذي آخره الشهادة؟ ولماذا كان الشيخ يرقص وهو يموت.. هل كان يتحقق ذلك المعنى

الذى سيشير إليه مولانا جلال الدين الرومي من بعده، حين قال: لا يفني في الله، منْ لم يعرف قوة الرقص!

ويعد وفاة نجم الدين كبرى، انتشرت طريقة المعروفة باسم (الكبروية) ببلاد فارس.. أما هو، فظل في صحراء خوارزم فهناك، على ما أخبرني به الصديق جمال الغيطاني، يقف بقبره: وحيداً، مبتعداً، مجهولاً.

أما عن الشعر الصوفي! فقد ترك نجم الدين مجموعة من الرباعيات الدافقة، لا تزال بعد في أصولها الفارسية، ولم يتترجم منها - فيما أعلم - أجزاء إلى اللغة العربية. ولسوف نقدم فيما يلي مجموعة متنوعة من تلك الرباعيات، مع ترجمة لها إلى العربية.. يقول الشيخ:

حاکمان در زمان معزولی همه شبلی وبايزید شوند
باز چون برسر عمل آيند همه چون شمر وچون یزید شوند
وترجمة الأبيات^(۱):

- الحكم في وقت عزلهم
- كلهم الشبلي وأبو يزيد
- وإذا عادوا لسلطتهم
- فكلهم مثل شمر ومثل يزيد

يريد نجم الدين هنا أن يقول: إن ذوي السلطة لا دوام لحالهم، ففي أوان ابتعادهم وإقصائهم عن الحكم، نجد زهاداً في الدنيا مثل الصوفية (أبو يزيد البسطامي، أبو بكر الشبلي...) فإذا حكموا مرة أخرى، نسوا ما مضى وصاروا من أهل الظلم والبطش أمثال شمر بن ذي الجوشن (قاتل الحسين في

(۱) نسجل هنا آيات شكرنا للدكتور: إبراهيم الدسوقي شتا، على معاونته في ترجمة هذه الأبيات ووضع صياغة عربية لها.

كربلاء) ويزيد بن معاوية الذي نُكلَّ بـآل بيت النبوة.. وهي في مجللها، إشارةً لتلاعب خمر السلطة بعقول البشر. وفي أبيات أخرى، يصف الشيخ حال الإنسان المعدم، فيقول:

گر جهودی قراضه آی دارد
خواجه نامدار و فرزانه است
وانکه دین دارد و ندارد مال
کر همه بوعلی است دیوانه است

وترجمتها:

- لو أن يهودياً لديه فتات مال

- فهو يكون السيد والوجه

- ومن لديه الدين وليس لديه المال

- يصير مجنوناً، ولو كان أباً علىَ

وهنا يشير نجم الدين إلى سلطان المال و فعله في البشر. فها هو اليهودي يتملك ويسود بالمال، وهو المعدم يصيّب الجنون - حتى لو كان رئيس الحكماء أباً علي بن سينا - ولا نشك في أننا لو تأملنا حالنا المعاصر، لعرفنا صدق هذه المقوله! وفي أبيات صوفية يقول نجم الدين:

این-لاه رخان که اصلشان از چکل است

یا رب که سرشت پاکشان از چه کل است

دل را ببرند وقصد جان نیز کند

اینست بلا وکرنه زیشان چه کله است

- ذوات الخدود التي تشبه الشقاقي، وأصلهم من شَجَلْ^(۱)

- يا رب، من آية طينة، عجیبهم الظاهرة

(۱) شَجَلْ: مدينة فارسية من بلاد ما وراء النهر، مشهورة بالنساء الجميلات.

- إنهم يسلبن القلب، ثم يتوجهن للروح
- وهذا بلاء، وليس للشكوى منهن سبيل!

هنا يستخدم الشيخ الرموز الصوفية، فيشير بذوات الخدود الوردية إلى تجليات الجمال الإلهي في الكون.. تلك التجليات التي تذهب بعقول المحققين المندهشين تحت سطوة الجمال الأثم، وهم مع فرط اندهاشهم واستهلاكهم في هذا الجمال، لا يملكون الاعتراض أو الشكوى. وأخيراً، يرمز الشيخ للواردات الإلهية بحبة الشعير، ويقول بوجوب التضحية في سبيل تلك الحبة بالدنيا وما فيها:

درکوی تو میدهند جانی بجوي جانرا چه محل که کاروان را بجوي
از تو صنما جسوی جهانی ارزد زین جنس که مائیم جهانی بجوي

- في حَيْكَ، يضخون بالروح لقاء حبة شعير
- وما الروح .. (إنهم يضخُّون) بقابلة في مقابل حبة الشعير
- فإن حبة منك أيها الحبيب، تساوي عالماً
- فلنبحث في مقابلها، عن دنيا كاملة ممَّن هم على شاكلتنا

* * *

بخصوص نجم الدين كبرى، يمكن الرجوع إلى:

ريحانة الأدب في ترجمة المعروفين بالكنية واللقب (بالفارسية) طرائق الحقائق (بالفارسية) التقىيد لابن نقطة (مخضوط) شذرات الذهب - سير أعلام النبلاء - تاريخ الإسلام للذهبي - روضات الجنات للمخوانساري - مقدمة نشرة فريتز ماير لكتاب فواتح الجمال.

وسوف نقوم - قريباً - بتحقيق ودراسة لكتاب (فواتح الجمال وفوائض الجلال) معتمدين في ذلك على مخطوطتين من تركيا، أمندنا بهما الدكتور: حسن عباس ذكي مؤخراً، وسوف نطابق النص المخطوط مع نشرة فريتز ماير الألمانية، ونقدم له ببحث حول الشيخ نجم الدين وتصوفه.

أبو الحسن الششتري

(المتوفى ٦٦٨ هجرية)

ثَرِبَنَا كَلْسٌ مَّنْ تَهُوَى جَهَازًا قَهْفَنَا عَذْنٌ رَّؤَيْتَهُ حَيَازَى
[الواقر]

بدأ التصوف في بلاد المغرب متأخراً عن بدايته ببلاد المشرق العربي، لكن الصوفية المغاربة ما لبثوا أن لحقوا بالأولين وتفسقوا. ولمعت في سماء التصوف القادم من المغرب، نجوم أسماء (ابن عربي، الشاذلي، المرسي، البدوي...) كما لمع اسم ابن سبعين وتلميذه الششتري.

ولد الشيخ علي بن عبد الله النميري اللوشي، المعروف بأبي الحسن الششتري^(١)، بقرية (لوشة) الأندلسية سنة ٦١٠ هجرية، في أسرة عظيمة العجاه. وحفظ القرآن في صغره، ثم درس الفقه، ولما أراد التعمق في الدين ومعرفة التصوف، أخذ طريقة أبي مدين التلمساني... ثم حدث الانقلاب الكبير في حياته الروحية حين التقى بابن سبعين (محمد بن عبد الحق بن سبعين الأندلسي، المتوفى ٦٦٩ هجرية) وكان اللقاء بمدينة بجاية، حيث التفت ابن سبعين للششتري قائلاً له: إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فهلم إليّ!

واختار الششتري طريق رب الجنة، وطلب من ابن سبعين أن يعرفه أصول الطريق ويقبله تلميذاً له... فما كان من ابن سبعين إلا أن طبق عليه

(١) الششتري: نسبة إلى قرية (ششت) بوادي (آش) بالأندلس.

القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخلص نفوس المربيدين من الغرور والتكبر، وهو ما يعرف عند الصوفية باسم: كسر حدة النفس. ومع أن الششتري كان آنذاك وزيراً وعالماً، فقد طلب ابن سبعين منه أن يمسك علمًا ويدور في الأسواق متغرياً بعبارة (بدأتُ بذكر الحبيب) وهو يلبس بردة بالية.. . وفعل الششتري ذلك، حتى إذا كان في اليوم الثالث، وجد نفسه يتعني قائلاً:

شويخ من أرض مكناس في وسط الأسواق يعني
إيش على من الناس ول AIS على الناس مني^(١)
ولازم الششتري شيخه ابن سبعين ملزمة تامة، وأخذ عنه علوم التحقيق السلوقي، وحقائق تجلي الذات الإلهية في كل ذرة من ذرات الكون.. . وكان الششتري شديد الحب لشيخه، حتى إنه كان يسمى نفسه (عبد بن سبعين) ولما وجد الناس يرتفعون من شأنه هو، ويقللون من شأن شيخه ابن سبعين، كان يقول: «إنهم يفعلون هذا لقصورهم عن فهم حقيقة الشيخ.. ». وهو قول يتفق مع مبدأ صوفي يؤكّد ضرورة تأدب المربي مع الشيخ في كل وقت.

ثم بدأ الششتري في السباحة في أرض الله الواسعة، وهي إحدى الرياضات الروحية عند الصوفية، فصاحب ابن سبعين في بعض رحلاته، وقام منفرداً بارتحالات أخرى، فزار قابس ومقالمة وطرابلس.. . وفي طرابلس أعجب الناس بعلوّه الوفيرة، خاصة في الفقه والسنة، فطلبوها منه البقاء وتوليه القضاء، فرفض مؤثراً حياة التقشف والزهد والسياحة. فلاموه على ذلك ووصفوه بالجنون، فأنسد:

رَضِيَ الْمُتَّمُّ في الْهُوَى بِجَنَوْنَهِ خَلُوَهُ يَقْنِي عَمْرَهُ بِفَنْسُونَهِ

(١) الأبيات من فن الواو، وهو أحد فنون المؤشحات.

ليس السلوُّ عن الهوى من دينه
 قسمَ المحبُّ بمحبه ويمينه
 عن فاترات الحب أو تلويته
 أبداً أحُن لشجوه وشجونه
 والصُّبُّ يجري دمعِ دأبه
 لا تعذسوه فليس ينفع عذلكمْ
 قسماً بمن ذكر العقيق لأجله
 مالي سواكم غير أني تائب
 مالي إذا هتف الحمام بأيكة
 فإذا البكاء بغیر دمعِ دأبه

وجاء الشستري إلى مصر، واعتكف زمناً بالجامع الأزهر، وتعرّف إلى الشاذلة فأعجب بهم وأعجبوا به، حتى عده بعض المؤرخين من الشاذلة..
 ثم خرج إلى مكة ومنها إلى بلاد الشام حيث اشتراك في الحرب ضد الصليبيين، واعتكف فترة بدمشق والتلى هناك بالشاعر الصوفي نجم الدين بن إسرائيل. وانتهت حياة الشستري بارض مصر، فقد عاد إليها من سياحاته، وبينما هو في الطريق، اشتدت عليه العلة بالقرب من دمياط..
 فسأل مریديه عن المنطقة التي يمرون بها، قالوا: إنها تُسمى (الطينة) فقال:
 حُنت الطينة إلى الطينة! وتوفي، فحمله مریدوه إلى دمياط فدفن بها. ولا يزال الباحثون يفتشفون عن قبره هناك..

أما عن الشعر، فقد ترك الشستري ديواناً يضم قدرًا كبيراً من القصائد والموشحات، إلى جانب بعض الرسائل الصوفية^(١)، ونال هذا الديوان استحسان الصوفية والمؤرخين، فقال الغبريني: «شعره في غاية الملاحة، وتواثيقه ومقفياته ونظمه الزجلي في غاية الحسن...». وقال ابن عباد الرندي: «أزجال الشستري فيها حلوة وعليها طلاوة، وأما مقطعاته فلي فيها شهوة وإليها اشتياق، وأما تحليتها بالنغم والصوت الحسن فلا تسل، فإن

(١) من رسائل الشستري: الرسالة العلمية، المقاليد الوجودية، الرسالة البغدادية.. وكان الدكتور النشار - رحمة الله - ينوي نشرها.

قدرتم أن تقيدوا منها ما وجدتموه، فافعلوا ذلك». وكان الدكتور النشار قد جمع ديوان الشستري ونشره بالإسكندرية، لكن هذه النشرة لم يكتب لها ذيوع ولا انتشار، فظل الشستري شاعراً مجهولاً.. وعسانا من خلال المختارات الشعرية التالية، نسهم بعض الشيء في مزيد من التعريف به.
ولنبدأ بهذا الاعتراف:
[الطوبل]

شُلُوَّيْ مكروهٍ وحبيبك واجب
وفي لوح قلبي من ودادك أسطر
وقارئٌ فكري للمحسن تاليَا
أنزَّه طرفي في سماء جمالكم
حديث سواك السمعُ مني محرم
يقولون لي ثُبٌ عن هوى مَنْ تحبه
عذاب الهوى عذبٌ لدى كل عاشقٍ

وشوقي مقيمٌ والتوacial غائب
ودمعي مدادٌ مثلما الحسن كاتب
على درس آيات الجمال يواظب
لشاقب ذهني نجمها هو شاقب
فكلي مسلوبٌ وحسنك سالب
فقلت عن السلوان إني شاقب
 وإن كان عند الغير صعبٌ وواصب

ويشرح الشستري حقيقة (الخمر) التي يتحدث عنها الصوفية، تلك
الخمر التي طاش معها عقل الحسين بن منصور الحلاج حتى قُتل ببغداد سنة
٣٠٩ هجرية. يقول الشستري:

وقد غالب الشعاع على النهار
أيُّها بالصغر وبالكبار
وما سُبِّكت زجاجتها بنار
سوى الحلاج في خلع العدار
وما سُكِّر الفتى منها بumar
تبه قد بدت شمسُ العقار
سلافاً قد صفت قدمًا وراقت
فما عصرت وما جعلت بدن
شربناها بسديرٍ ليس فيه
قديمٌ عهدنا بالسكر^(١) عزًا

(١) يرى الصوفية أن التوحيد الشهودي للأرواح - قبل خلق الأجساد - هو الخمر القديمة السابقة على الخلق.. ومن هنا قال ابن الفارض:
شربنا على ذكر الحبيب مُدامٌ

يجرُّ الديسل في ثوب السوقار
فما يرويهُمْ شربُ البحار
وقد سلبوا بغير الاختيار
عصاهم إذ المُوا بالجوار
وولَى بالمخافة للفرار
هناك وأقبلوا بالافتقار
كما وجب السؤال بالاضطرار
وعنهم حالة مُرّ اصطبار

نشا في القوم شماسٌ لطيفٌ
فأفاهم به عنهم فناهوا
تراهم شاحفين بغير لبٍ
وعند دخولهم في الدير ألقوا
كمـا ألقى الكليم بها عصاهم
وخلوا رأس مـالـهم طريحاً
إضاعة مـالـهم وجـبـ عليهم
لسان الشـشتـريـ بهـم ولـسـوغـ

ونلاحظ في الأبيات السابقة، أن الششتري يستخدم عدة ألفاظ تبدو وكأنها تعبر عن تعلقه بالتراث المسيحي - مثل كلمات : الدير، شماس - مما جعل الدكتور النشار يفترض أن الششتري كان يتربـد على الرهـانـ في الأديـرةـ ويـتـعـرـفـ علىـ طـقوـسـهـمـ وـعـادـاتـهـمـ ..ـ الخـ،ـ وـلهـذاـ وضعـ الدـكتـورـ النـشارـ فيـ كتابـهـ (The Poetry and Mystical Philosophy AL Shushtari)ـ تفصـيلاـ كـامـلاـ لـرمـوزـ الـديرـ وـالـراهـبـ وـالـشـمـاسـ وـالـصـلـيبـ،ـ باـعتـبارـهاـ رـمـوزـاـ لـمعـانـ صـوفـيـةـ وـراءـ هـذـهـ الرـسـومـ الـحـسـيـةـ .ـ وـالـحـقـيقـةـ،ـ فـإـنـ هـذـهـ الرـمـوزـ أـثـلـتـ دـوـمـاـ غـضـبـ العـامـةـ وـالـفـقـهـاءـ،ـ وـفـجـرـتـ زـوـبـعـةـ حـوـلـ الشـشـتـريـ،ـ حتـىـ اـفـتـرـىـ عـلـيـهـ الـبعـضـ بـالـارـتـدـادـ إـلـىـ الـمـسـيـحـيـةـ!ـ ولـذـلـكـ قـامـ النـابـلـسـيـ بـشـرـحـ أـكـثـرـ قـصـائـدـ الشـشـتـريـ اـمـتـلـأـ بـهـذـهـ الرـمـوزـ،ـ وـسـمـىـ الشـرـحـ (ـرـدـ المـفـتـريـ عـنـ الطـعنـ فـيـ الشـشـتـريـ)ـ..ـ يـقـولـ مـطـلـعـ القـصـيدةـ:ـ [ـالـطـوـمـيلـ]

تأدب بباب الدير واحلخ به النعلا
وسـلمـ عـلـىـ الرـهـانـ وـاحـطـطـ بـهـمـ رـحـلاـ
وهـنـاـ يـقـولـ النـابـلـسـيـ:ـ بـابـ الـدـيرـ،ـ هوـ الطـرـيقـ إـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ عـلـىـ
المـشـرـبـ العـيـسـوـيـ الـمـحـمـدـيـ.ـ وـالـسـلـامـ عـلـىـ الرـهـانـ،ـ إـعـطـاءـ الـأـمـانـ لـأـهـلـ اللهـ

الواقفين في مقام الخوف والرعب من سطوات الدهر الإلهي . وحط الرحال،
أن لا ينكر عليهم ويحشر معهم !

وأياً ما كان من صحة هذه التأويلات التي يقدمها النابليسي ، فلا يصح
القول بارتداد الششتري إلى المسيحية وتزوجه إلى الرهبة . فقد حارب الرجل
الصلبيين تطوعاً، وأنجب العديد من الذرية خلافاً لما يفعله الرهبان ،
وواظب على فروض وقواعد الإسلام . . والحديث النبوى يقول: لا رهبانية
في الإسلام! القضية إذن: أن الششتري اختار رمزاً خاصة للتعبير عن معانى
الذوقية ، دون أن يهتم بما يشيره ذلك من حقن الفقهاء وأهل الظاهر . . وقد
تناولنا هذه المسألة بالتفصيل ، في بحثٍ لنا بعنوان: الرموز النصرانية في شعر
الششتري^(١) .

ولترك هذه الإشكالات الاصطلاحية للرموز ، لنتظر في أهم قصائد
الششتري وأطولها على الإطلاق :

بفكِّرِ رمَى سهْمًا فعَدَى به عُدْنَا
نَغِيْبٌ بِه عَنَّا لَدِي الصُّعْق^(٢) إِذْ عَنَّا
مِنْ الْمَقْصِدِ الْأَقْصِى إِلَى الْمَطْلَبِ الْأَسْنِى
وَلِيُّسْ بِشَيْءٍ ثَابَتْ هَكَذَا الْفَيْنِى
بِمَلَةِ مَحْوِ الشُّرُكَ وَالشُّكْ قَدْ دِنَّا^(٤)
وَرَافِضِهِ الْمَرْفُوضُ نَحْنُ وَمَا كُنَّا
حَجِبَتْ بِهَا اسْمَعْ وَارْعُوِي مِثْلَمَا بَنَا

أَرَى طَالِبًا مِنَ الْزِيَادَةِ لَا الْحُسْنِي
وَطَالِبًا مَطْلُوبِنَا مِنْ وَجْدَنَا
تَرَكَنَا حَظْوَظًا مِنْ حَضِيقَ لَحْوَظَنَا
وَلَمْ نَلْفِ كُنْهَ الْكَوْنِ إِلَّا تَوْهَمَا
فَرَفَضَ السُّوَى^(٣) فَرَضَ عَلَيْنَا لَأْنَنَا
وَلَكِنْهَ كَيْفَ السَّبِيلُ لِرَفْضِهِ
فِيَا قَاتِلًا بِالْوَصْلِ وَالْوَقْتَةِ الَّتِي

(١) ألقى هذا البحث في مؤتمر الحضارة الأندلسية ، القاهرة ، يناير ١٩٩٢ .

(٢) الصُّعْق حال صوفي قريب من الجذب والدهش .

(٣) السُّوَى : كل ما سوى الله .

(٤) دِنَّا : آمنا .

عليك ونور العقل أورثك السجنا^(١)
ومنبعها من أين كان فما همنا
تُقيَّدَ من إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَّتْ ضِيَّعْنا
وأَكْمَلَ مَنْ فِي النَّاسِ^(٢) لَمْ يَدْعُ الْأَمْنَا
لقال لنا الجمُهُورُ هَا نحن ما نجينا^(٣)
وكم مهمٌّ من قبْلِ ذَلِكَ قَدْ جَبَنا
سُوَى اللَّهِ غَيْرَ فَاتَّخَذَ ذَكْرَهُ حِضَّنا
حِجَابَ فَجَدَ السِّيرَ وَاسْتَنْجَدَ العَوْنَا
عَلَيْكَ فَحُلَّ عَنْهَا فَعَنْ مَثَلَاهَا حُلَّنَا
فَلَا صُورَةً تُجَلِّي وَلَا طَرْفَةً تُجَنِّي
سَبِيلٌ بِهَا يَمْنَ فَلَا تَرْكَ الْيَمْنَا
عِقَالٌ مِنَ الْعَقْلِ الَّذِي مِنْهُ قَدْ تُبَانَا^(٤)
بِأَوْهَامِهِ قَدْ أَهْلَكَ الْجَنَّ وَالْبَنَّ^(٥)
وَحَجَّنَا تَتْلُوهُ بَاءَ بِهَا تَهَنَا
يَسُودُ لَسْوَانًا لِلصَّعِيدِ قَدْ اخْلَدَنَا
كَرَاءُ وَمَرَثَىٰ وَرَقِيَّةٌ مَا قَلَنَا
وَيَرْجِعُ مَوْلَىٰ بِالْفَنَا وَهُوَ لَا يَفْنِي

تُقْيَّدَ بِالْأَوْهَامِ لَمَا تَدَخَّلَتْ
وَهُمْ بِسَأْنَوَارٍ فَهُمْ نَا أَصْوَلَهَا
وَقَدْ تَحْجَبَ الْأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَمَا
وَأَيْ وَصَالِٰٰ فِي الْقَضِيَّةِ يُدَعِّي
وَلَوْ كَانَ سُرُّ اللَّهِ يَدْرِكُ هَكُذا
فَكَمْ دُونَهُ مِنْ فَتْنَةٍ وَبَلِّيَّةٍ
فَلَا تَلْتَفَّتْ فِي السِّيرِ غَيْرَأً وَكُلُّ مَا
وَكَلْ مَقَامٌ لَا تَقْمِ فِيهِ إِنَّهُ
وَمَهْمَا تَرَى كُلُّ الْمَرَاتِبِ تَجْتَلِي
وَقُلْ لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ ذَانِكَ مَطْلَبٌ
وَبِسَرْ نَحْوِ أَعْلَامِ الْيَمِينِ فَإِنَّهَا
أَمَامَكَ هُولٌ فَاسْتَمْعِ لِوَصِيَّتِي
أَبَادَ الْوَرَى بِالْمَشْكُلَاتِ وَقَبْلَهُمْ
مَحْجَنَا قَطْعُ الْجِجَاجَا وَهُوَ حِجَّنَا
يَبْطَئُنَا عَنْدَ الصَّعُودِ لَأَنَّهُ
تَلُوحُ لَنَا الْأَطْوَارُ مِنْهُ ثَلَاثَةٌ
وَيَقْصِرُ عَبْدًا عَنْدَ طُورِ بَقَائِهِ

(١) يرى الصوفية أن المعرفة بالله تختطى حدود العقل، ف مجال العقل هو عالم المحسوسات.

(٢) الإشارة إلى النبي ﷺ.

(٣) يزيد الششتري هنا أن يقول: إن الأسرار الإلهية تكون للخاصة من أهل الله.

(٤) حاول ابن عجيبة الشاذلي في شرحه للقصيدة، أن يفسر (الجن والبن) على أنها قيلتان..

واعتقد أن ذلك مجرد تلقيق لغوي لمراعاة الوزن الشعري.

ثم يعرض الشستري في بقية أبيات القصيدة لمظاهر الوجود الحسي الذي يظنه الإنسان حقيقة، وهو عند أهل الحقيقة وهم وخيال.. يقول [الطوبل]:

فتحن كدود القرز يحصرونا الذي صنعوا بدفع الحصر سجنأ لنا منا فكم واقف أردى وكم سائر هدى وكم حكمة أبدى وكم معلم أغنی

* * *

بخصوص شعر الشستري يمكن الرجوع إلى:

- ديوان أبي الحسن الشستري ، تحقيق د. علي سامي النشار (طبعه الإسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٦٠).

- رد المفتري عن الطعن في الشستري (مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٦٢ ، تصوف - بلدية الإسكندرية رقم ٥٠٣ ، تصوف).

أما بخصوص ترجمة حياته، فيمكن مراجعة:

عنوان الدراسة للغبريني - نفح الطيب للمقربي - نيل الابتهاج للتنبكتي - إيقاظ الهمم لابن عجيبة - الكواكب الدرية للمناوي - الرسائل الكبرى لابن عباد الرندي - ابن سبعين وفلسفته للدكتور التفتازاني .. وهناك فصل جيد عن الشستري وأشعاره وموشحاته في بحث الدكتور: سليمان العطار، الشعر الصوفي في الأندلس (دار المعارف - القاهرة).

نجم الدين بن إسرائيل

(المتوفى ٦٧٧ هجرية)

مَلَأَتْ كُلَّ الْكَوْنِ عِشْقًا فَمَا
أَغْرِفْ قَلْبًا خَالِيًّا مِنْ هَوَاءٍ
[السريع]

حفل القرن السابع الهجري بالعديد من أعلام الإسلام في كل مجالات العلم والمعرفة والأدب والتصوف. ومن هؤلاء الأعلام من جمع بين الشعر والاتجاه الصوفي، كالشيخ: محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن الحسن بن علي بن الحسين، الشيباني الشاعر المعروف بنجم الدين ابن إسرائيل.

ولد ابن إسرائيل بدمشق سنة ٦٠٣ هجرية، ومات بها بعد حياة دامت أربعة وسبعين عاماً. وعاصر العديد من رجال التصوف ومشايخه الكبار، وكانت له صحبة ببعضهم كما سندكر فيما بعد..

بدأ ابن إسرائيل حياته شاعراً حسياً يميل بأشعاره نحو ما يجذب شعراً الدنيا من زخارف، فكانت أشعاره في المرحلة الأولى تحمل تلك النزعة الخلية التي نجدها عند الغافلين، كما كانت تعكس اهتمامه بالموضوعات الدنيوية الهاابطة كالتعزز في الغلمان! ومع ذلك فإن شعره في تلك المرحلة لا يخلو من طرافة.. فهو - على سبيل المثال - ينظر إلى طبيب العيون، نجم الدين الكحال، وهو يضع الكحل في عيون حبيته، فيبتدره قائلاً:

[الكامل]

يا سيد الحكماء هذى سنة مسنونة في الطب أنت سنتها
أو كلما كلت سيف جفون من سفك لواحظه الدماء، سنتها
وكان ابن إسرائيل يكسب قوته بمدح الرؤساء والأمراء ورجال الدولة،
وكان في مدحه ظرف. ثم جاءت لحظة التحول الروحي في حياته، حين
حدثت معه تلك الواقعة التي يرويها قائلاً: «أضفت في بعض الأوقات إضافة
شديدة، فقلت في نفسي: والله لن أمدح بعد ذلك إلا الله تعالى...». فقلت
قصيده التي أولها:

يا ناق ما دون الأثيل^(١) معرس^(٢) جدي فصيحك قد بدا يتنفس
واستصحي عزماً يلتفك الحمى لتظل تغبطك الجواري الكنس

يقول ابن إسرائيل: «فجاءت القصيدة اثنين وستين بيتاً، وكان لي عادة
أن أنظم القصائد وأنقحها فيما بعد، فنظرت في هذه القصيدة فلم أر فيها ما
يحذف، فنمت ليلاً، فلما كان وقت السحر، فإذا بالباب يدق، فقمت
فوجدت رجلاً جاء من مصر ومعه رسالة لي من الأمير جمال الدين بن
يعمُور، وبصحبتها صرة ذهب. وقال الرجل: الأمير يسلم عليك، وهذا المال
لك برسم النفقه! فعددت الذهب فكان اثنين وستين ديناراً.

ودخل ابن إسرائيل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق من يد الشيخ
علي الحريري، ثم لبس (خرقة الصوفية) على يد الشيخ شهاب الدين
السهروري صاحب كتاب (عوارف المعارف)، وسمع منه الحديث النبوى،
وجلس في الخلوة تحت إشرافه ثلاث مرات، ثم مضى يسير في الأرض على

(١) يا ناق: أي يا ناقتي.. الأثيل: واد مشهور يشير به إلى القرب من الله.

(٢) المعرس: مكان المبيت ليلاً.

صورة الزهاد الدراويش الذين ألقوا الدنيا وراء ظهورهم، ومضوا إلى الله على قدم الفقر إليه تعالى.. وظل ابن إسرائيل شاعرًا، لكن شعره هذه المرة سيكون على النحو التالي :

<p>وإليهم يتوجّه المستظم ويلذ لسواعٍ الغرامِ المغرِّم وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ وجوانحِي أبداً تحنُّ إلى يكم وإذا سمعت فمسنكم أو عنكم وإذا سأّلتُ الكائناتِ فعنكم ويذكركم في سكريٍ اترئُم فلاجلِ حُسنكُ المحجَّبِ انظمُ ووجوده هلي الكائناتِ تَوَهُمُ وغيريكم ما باله لا يرحمُ</p>	<p>يا من يُشيرُ إليهم المتكلّم وعليهم يحلو التأسفُ والأسى هذا الوجود وإن تعددَ ظاهراً وشغلتُم كُلّي بكم وجوارحي وإذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم وإذا نطقت ففي صفاتِ جمالكم وإذا سكرتُ فمن مدامّة حبكم وإذا نظمتْ تغزلاً في صورةِ أنتم حقيقةً كُلُّ موجودٍ بدا أنا في وجودكم غريبٌ باشّ</p>
---	--

ففي هذه الأبيات، نرى ابن إسرائيل وهو يطلق كل معانٍه الشعرية إلى مراد واحد فقط، هو الله تعالى. كما نراه وهو يعبر عن فكرة صوفية كبرى، تتلخص في أن الموجود على الحقيقة هو الله، وما عداه وهم ويماطل يظنه المحسوبون حقائق.. وقد تناول ابن إسرائيل هذه الفكرة في العديد من قصائده الصوفية التي يقول في إحداها :

<p>فإنما مقصدهم أن أراكُ فإنما عقدُ ضميري جماك</p>	<p>إن أمَّ صحيٍ سمراً أو أراكُ^(١) وإن ترئستُ بذكرِ الحمى</p>
--	---

(١) الأراك: نوع من الأشجار.

أحسب إلا أنه قد دعك
 أحسب إلا أنه قد بكك
 أجملت إذ فرّغتني من سواؤك
 من لي بأن يرحم فقري غناوك
 أعرف قلباً خالياً من هواك

وإن دعا غيرك داعٌ فما
 وإن بكى صبّ حبيباً فما
 بـا جملة الحبّ وتفصيله
 وـيـاـ غـنـيـاـ عنـ غـرـامـيـ بـهـ
 مـلـأـتـ كـلـ الـكـوـنـ عـشـقاـ فـماـ

وعلى ما في هذه الأبيات من بساطة لغوية وفقر بلاغي ، إلا أنها عميقـةـ
 الصدقـ وـغـنـيـةـ بـالـمـفـاهـيمـ الصـوـفـيـةـ الـرـامـيـةـ إـلـىـ أـنـ كـلـ ذـرـةـ مـنـ ذـرـاتـ الـوـجـزـ فـيـ
 تـسـبـيـحـ دـائـمـ لـهـ ، وـهـوـ مـاـ وـرـدـ فـيـ نـصـ الـآـيـاتـ الـقـرـآنـيـةـ كـفـولـهـ تـعـالـىـ :ـ (ـوـإـنـ مـنـ
 شـيـءـ إـلـاـ يـسـبـيـحـ بـحـمـدـهـ)ـ⁽¹⁾ـ وـالـرـامـيـةـ أـيـضاـ إـلـىـ القـوـلـ بـوـجـودـ اللهـ فـقـطـ فـيـ أـعـيـنـ
 الـمـحـقـقـيـنـ مـنـ الـأـوـلـيـاءـ ..ـ وـقـدـ أـثـارـتـ هـذـهـ الـأـفـكـارـ مـعاـصـرـيـ اـبـنـ إـسـرـائـيلـ ،ـ فـقـدـ
 رـوـيـ الـمـؤـرـخـونـ أـنـ كـانـ بـمـجـلـسـ صـوـفـيـ ،ـ وـكـانـ اـبـنـ الـحـكـيمـ الـحـمـوـيـ حـاضـراـ،ـ
 فـغـنـيـ الـمـعـنـيـ مـنـ شـعـرـ اـبـنـ إـسـرـائـيلـ قـولـهـ :ـ [ـ الطـوـيـلـ]

وـمـاـ أـنـتـ غـيرـ الـكـوـنـ بـلـ أـنـتـ عـيـنـهـ ~ وـيـفـهـمـ هـذـاـ السـرـ مـنـ هـوـ ذـائـقـ
 فـقـالـ اـبـنـ حـكـيمـ :ـ كـفـرـتـ كـفـرـتـ ،ـ فـقـالـ اـبـنـ إـسـرـائـيلـ :ـ لـاـ مـاـ كـفـرـتـ وـلـكـنـ
 أـنـتـ مـاـ تـفـهـمـ ..ـ وـتـنـازـعـاـ ،ـ وـتـشـوـشـ الـوقـتـ

وـلـنـتـرـكـ التـنـازـعـ وـتـشـوـشـ الـأـوـقـاتـ ،ـ لـنـقـرأـ هـذـهـ الـغـزـلـيـةـ الصـوـفـيـةـ السـرـقـيـةـ التـيـ
 يـرـمزـ فـيـهاـ اـبـنـ إـسـرـائـيلـ لـلـجـمـالـ الـإـلـهـيـ بـلـيـلـيـ ،ـ فـيـقـولـ مـؤـثـراـ الـمـسـوـتـ عـلـىـ
 الـهـجـرـ :ـ [ـ الرـجـزـ]

هل عهد ليلى بالكتيب عائدٌ
 أم طيفها لسُقُم جسمي عائدٌ
 لها الجمال عاشقٌ وحاسدٌ
 حوراء حار العقلُ في صفاتها

(1) سورة الإسراء (الآية : ٤٤) .

وكلٌ عطفٍ فيه غصنٌ مائذ
وحسنها وفرط وجدي زائد
فؤادٌ مُضناكٌ عليكَ وافدٌ
والسدمُ دمعٌ لغرامي شاهدٌ
من أرضك الرسومُ والمعاهدُ
والحرُّ من يحفظَ مَنْ يعاهدُ
بكمٍ وتصفو عننك المواردُ
وتنتهي مَنْ وصلنا المواعيدُ
عليٌ فيها بالرضى شواهدُ

فكُلٌ عضوٍ فيه بدرٌ طالعٌ
فعطفها وحسنٌ صبري ناقصٌ
يا كعبة الحسن التي أحجها
قد سقطت في الهوى إليك مهجتي
وطفت في مَفناك^(١) حتى ملئني
ولم أتصرُّ فيك عن حفظ الهوى
وربما يجتمع جمُع شملنا
وعلننا نقضي مُنانا بمنى
أولاً فمُؤتي فيكم شهادةً

[الطوبل]

ويواصل ابن إسرائيل بث شكاواه وأشواقه، فيقول:

وارضى بما تجني عليٌ وتغضبُ
فؤادي وإن اعتبَ فما أنت مُقتبُ
وكلٌ ودادٌ بالتكلفِ يصعبُ
تعدُّ نفسه للطبعِ والطبعُ أغلبُ
على العهد، كلُّ الناس هندٌ وزينبٌ
فاغرَّني وجداً ما أطلبُ
كان الذي حاولَ عنقاءً مغربُ^(٢)
تعطفَ فإن العطفَ منك مجريبُ
لعل رحيلي عن جنابك يُقربُ
بوجهي كاني خائفٌ متربَّ

إلى كم، رعاك الله، تأي وأقربُ
فلا أنت مشك إن شكتُ فيشتفي
تكلفتَ لي ذاك السوداءَ فلم يدمَ
ومن يتتكلفُ ضلَّ ما هو طبعه
يقولون هند لا تدومُ وزينبٌ
تطلبُ ودًا لا يكُون لعملةٍ
وحائلتَ مَنْ يُوفي بعهدهِ فلم أجذُ
تلطفَ فإن اللطفَ منك سجينةٌ
 وإن كان لا بُدًا من الهجر فائشَ
سأرحلُ عنك البسم لا متلفتُ

(١) المعني: الأرض الكثيرة الزرع والشجر.

(٢) عنقاء مغرب: طائر أسطوري، يرمز دوماً للمستحيل.

واما ودادي فهو باقٍ وإن من بقاء ودادي أنسني أتعثّب

وشعر ابن إسرائيل ليس هجراً كله، وإنما فيه أيضاً وصال: [الطوبل]

فارغم عذالي عليه وحشدي
على مفترم بالوصول لم يتعد
ويابرداً ما أهدى إلى قلبي الصدي^(١)
ويانيل آمالي ويأنجح مقصدتي
فقد أينت من أن تروح وتغشدي
ولا تذكرا لي الوردة فالراخ موردي
فقد طال حبسي بين نؤي ومسقدي
وقولا لغزلان الصريرم ألا ابعدي
فما فيي بعد اليسوم فقر لمسعدي
وزار الكري أجفان طرف في المسهد
سقاها له طرف إلى رؤيتي صدي
عروش حمي العحان تجلّى على يدي
وإن صدّنَ من أهل النهى^(٤) كل أصيده
فقد أبت العلياء^(٥) إلا تفرّدي
فكتم معرض في اليوم يقبل في غد

وفى لي منْ أهواه جهراً بموعدى
وزار على شحط المزار سطولاً
فيما حسن ما أبدى لعيّني جماله
ويما صدق أحلامي بشرى وصاله
نديمي من سعيد أريحار كائي
ولا تلزماني النسك فالحب شاغلي
ولا تقفا بي في الرسم التي عفت
وممراً على حيٍ بمنعرج اللوى^(٢)
ولا تسعداًني بعدها لكما البقا
أمين بعد ما قد برد الشوق غلتني
وهامت بي الصهباء^(٣) وجداً فكل منْ
وأمسيت والكاسات شمسي وأصبحت
وأضحت ظباء الحيٍ صيد خلاعني
ذراني وعزمي والسدجي ومزاره
ولا تأسسا من روحه^(٦) وتأسيا

(١) الصدي: العطشان.

(٢) منعرج اللوى: موضع.

(٣) الصهباء: الخمر.

(٤) النهى: العقول الراجحة.

(٥) العلياء: قمة الجبل ورأس كل شيء مرتفع.

(٦) الأيس: اليأس.. والروح: الرحمة.

لجيزة ذاك الحي نقداً بموعد
ودون الفلاحة الحسام المهندي
برؤاه عقبى حيرتني وتلذدى
وتطربنى الألحان من كل منشد
أصل ومن صبح المباسم اهتدى
يسوره دمعي كل خداً موره

ففي الحي ضب باع مهجة نفسه
هو الحب إما مئنة أو مئنة
السم تريراً أني وجدت تلذدى
وقد عشت دهراً والزمان يهزنى
فأغدو وفي ليل الغدائر دائباً
ويقسم جسمى كل جفن وتسارة

[البسيط]

ضب متى جرت ذكر اكم يجب (١)
وريما حال من دون المني الأدب
وحلتم (٢) فحلا لي فيكم التعب
وليس لي في حياة بعدكم أرب
لولا قلودكم الخطية السلب
النت أم أسلمت أقمارها النقب
أجزت حيث مشين الخردة الغرب
سمر العوالى والهنديه القطب
يا در دمعي لولا الظللم والشسب (٣)

وأنشد أبياتاً قال فيها:
لم يقض في حكم بعض الذي يجب
أحبابنا والمُنْي تلذنى زياراتكم
قاطعتموني فأحزاني مُواصلة
ما رابكم من حياتي بعد يعودكم
رُحْتم بقلبي وما كادت لتسليه
يا بارقاً ببريق الحزن لاح لنا
وينا نسيماً سرى والعطر يصحبه
أقسمت بالمقسمات الزهر تحجبها
لكدت تشبه برقاً من ثغورهم

ولهذه الآيات قصة، جمعت بين ابن إسرائيل وبين الخليفي وبين
الفارس في أحداثها.. ولسوف نرويها في كلامنا عن ابن الخليفي فيما بعد.

* * *

(١) يجب: يضطرب قلبه.

(٢) حلتم: تحولتم.

(٣) الشسب: بياض الأسنان.

المصدر الرئيسي لترجمة ابن إسرائيل ومقططفات أشعاره التي قدمناها، هو فوات السوفيات لابن شاكر الكتبى . ويمكن أيضاً الرجوع إلى : الوافى بالوفيات - شذرات الذهب - البداية والنهاية لابن كثير - لسان الميزان لابن حجر - البدر السافر - العبر.

شِهَابُ الدِّينِ بْنُ الْخَيْمِي

(المتوفى ٦٨٥ هجرية)

وَقَالَ لِي الْغَدَالُ هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ
إِذَا رَجَعُوا عَنْ غَدَرِهِمْ قُلْتُ: لَا أَذْرِي!
[الطوبل]

في تلك المرحلة الزاخرة بالصوفية الشعراء، عاش محمد بن عبد المنعم بن محمد الأنصارى، البمنى الأصل، المصرى الإقامة، المعروف بشهاب الدين ابن الخيمي. فكانت حياته التى امتدت اثنتين وثمانين سنة، حافلةً بما كان يشيع في القرن السابع الهجرى من شعر ممزوج بالنزعة الصوفية.

يصف المؤرخون ابن الخيمي بأنه (حامل لواء النظم في وقته) وهو وصف يرفعه في ميدان الشعر على سائر معاصريه، ومن فيهم ابن إسرائيل الذي تحدثنا عنه فيما سبق، وغيره من شعراء الصوفية الآخرين... وهو يبدو دوماً في صورة الابن الروحي للشاعر الصوفي الأشهر: عمر بن الفارض. وقد أشار سبط ابن الفارض في ديباجة ديوانه إلى أن ابن الفارض كان يعامل ابن الخيمي معاملة الوالد لولده.

ثم يرفع ابن فضل الله العمري المؤرخ من شأن ابن الخيمي كمنصور، فيصفه بأنه (قدوة في الطريقة وأسوة في الحقيقة) وبذلك يكون لدينا: شخصية برزت في الشعر وفي التصوف!

إلا أن ابن الخيمي لم يقف فقط عند حدود التصوف والشعر، بل كان أيضاً من كبار المشغلين بعلم الحديث النبوى. كما كان من كبار موظفى الدولة، فهو يخدم في الديوان السلطانى، ويباشر الأوقاف الخاصة بمدرسة الشافعى ومسجد الحسين بالقاهرة. وهو أخيراً متكلم في أمور الدين، معروف بالأجوبة المُسْكَنة وبعدم الغضب والانفعال في الحوار.

تلك هي شخصية ابن الخيمي، كما تقدمها المصادر التاريخية وكتب الطبقات.. لكن ما يهمنا هنا هو شعره الصوفى ا فلنقرأ إذن تلك الأبيات الرقيقة التي يصف فيها احتراق قلبه بنار الحب الإلهي ، فيقول: [الطوبل]

فعاد لنا ضوء الصباح كما بدا
فمن ذلك الحسن الصلاله والهدى
عليه فإني قد وجدت بها هدى^(١)
مدى الدهر لا أعطيك يا عاذلي يدا

كلفت بدرٍ في مبادي الدجا بدا
وحجبَ عنا حُسْنَة نورُ حسنه
فيما عاذلي دعني ونارَ صبانتي
وهاك يدي إني على ترك حبه

ليدري أو في حبٍ بدرى مُشَهداً
ويا دمع عيني حبذا أنت مورداً^(٢)
ويا صحة السلوان شأنك والعدا
وكيف ونور العاميرية^(٣) قد بدأ

فما العيش إلا أن أبيب مواصلاً
فيما نار قلبي حبذا أنت مصطلى
ويا سقمي في الحب أهلاً ومرحباً
فلست أرى عن ملة الحب مائلاً

(١) الإشارة إلى نار موسى عليه السلام، قوله: أجد على النار هدى.

(٢) على التحو الوارد هنا، جاء البيت في كتاب (غوات الرويات) أسا في (شذرات الذهب) فقد جاء كما يلى :

فيما حبذا نار لقلبي تصطلي

ويا دمع عيني حبذا أنت موردا

(٣) العاميرية: هي المعشوقه العربية المشهورة (ليلي) والصوفية يرمزن بها للجمال الإلهي.

ثم نسرى ابن الخيمي وهو يعاني ألم الفراق، وغياب السواردات والإشارات الإلهية من قلبه، فيصطنع أسلوب الغزل ويكتفي عن العبيب، فيقول باكيًا: [الطوبل]

سلامٌ فتنٌ ما زال عن عهد جبّه لذيدُ هواكم في سواداء قلبِه بمناكِم قد جرَ ذيلاً بشوّه بقربيكم يقضي بتفریجِ كربّه	سلامٌ على بُعد المزار وقربِه يُعلّله إن فاته طيبٌ وصلّكم ويُلقي بخديبو النسيم لأنّه ويُعرض الركبانَ علَّ مبشرًا
--	--

ويبدو أن شعر ابن الخيمي لم يكن ملتزمًا فقط بحدود الموضوعات الصوفية، بل كان ينطلق في كل المناسبات، ويتحرك مع كل موقف.. لكنه كان يعود فيلوبي عنان الشعر نحو المحبة والوجود مرة أخرى، وذلك ما يظهر من أبياته التي قالها وهو يعاني من حمى شديدة أصابته: [الخفيف]

صاحٌ قُلْ للطبيب ما هي حُمّي وخرُوج الميساء من جسمِي الـ ما شفاني بكاءً عيني حتى	تلك نارُ اشتياقِ قلبي إليهم مُضنى بـأعْيُنِ المَسَامِ لـدِيهم ساعَدتني عيونُ جسمِي عليهم
--	--

[السرير]

وقوله في مسبحة سوداء:

يحكي سواد القلب والناظر أَعْدُ أيامك يا هاجري	ومسبحةٌ مسودةٌ لـسونها كأنّي عند اشتغالٍ بها
--	---

وفي شعر ابن الخيمي أبيات، لم أطمئن إلى حملها على الجانب الصوفي، وإن كانت تحتمل تأويلاً بعيداً.. فمن ذلك وصفه لهذه المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الإلهية:

[الطوبل]

أيا من سلوا عنا ومالوا إلى الغدر
وبيعد حيلوات التواصل والهوى
إذا ما رجعتم عن محبتكم نجري
وان كتم في الجهر عنا صدتم
سكنتم فؤادي مرةً ورحلتم
وقال لي العذال هل أنت راجع
وما لزمو أخلاق أهل الهوى العذري
جنوا مرّ طعم الهجر من علقم الصبر
مشاءً رجعنا عن محبتكم نجري
ففي سرّنا عنكم نصّ وفِي الجهر
فاصبح منكم حالياً حالياً السرّ
إذا رجعوا عن غدرهم قلت لا أدرى
ولابن الخيمي غير ذلك من الأبيات التي لا يمكن بأي حال أن تعد
شعاً صوفياً، ومهما كان تأويلها من قريب أو بعيد، فإنها تظل أشعاراً حسية
لا تتفق مع نزعة العلو والسمو الصوفي. فمن ذلك ما نجده له من أبيات في
وصف الخمر، وهي أبيات طوال حاولنا أن نتلمس فيها أي إشارة إلى كونها
خمر المحبة التي يتحدث عنها المتصوفة والصوفية، فلم نجد لتلك الإشارة
أثراً.. ومن ثم، فقد آثرنا عدم ذكر هذه الأبيات هنا، حتى لا يتقدّر صفو
الحال! فمن أراد مطالعتها، فليراجع (فوات الوفيات) فهو شاكٌ قدر لا يأس به
منها.

وآخر حديثنا عن ابن الخيمي، حكايةً لطيفةً وردت في عدة مصادر
تاريجية. وهي الحكاية التي ذكرنا في خاتمة الكلام عن ابن إسرائيل أنها
سنعود إليها هنا. تقول الحكاية:

كان ابن إسرائيل في طريقه إلى الحج، فوجد ورقة ملقاة، بها قصيدة
بائبة رائعة، تمتلىء بالمعانٍ الذوقية والنكات الشوقية والمشاعر الصوفية.
وكان مطلع القصيدة: [من البسيط]
يسا مطلباً ليس لي في غيره أربُ إليك آل التقسي وانتهى السطلب

وادعى ابن إسرائيل القصيدة لنفسه! مع أنها لابن الخيمي، ومعروفة
له.. وتنازعوا في ملكية القصيدة، فأفقي الأدباء بأن يحتكموا إلى سلطان
شراء الصوفية المجهولون - مـ ٦١

العاشقين عمر بن الفارض، فقال لهما: ينبغي لكل واحد منكم أن ينظم أبياتاً على نفس منوال القصيدة المتنازع فيها. فنظم ابن إسرائيل الأبيات التي ذكرناها في خاتمة حديثنا عنه فيما سبق، ونظم ابن الخيمي الأبيات التي سنذكرها بعد قليل.. فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي! والحقيقة، فقد كان حُكْم ابن الفارض صائباً، فالجو العام في أبيات ابن إسرائيل جاء مختلفاً عن روح القصيدة المتنازع عليها، بينما تلاءم أبيات ابن الخيمي وتنسجم معها.. ولقد كانت القصيدة محل التزاع تقول: [البسيط]

إِلَيْكَ أَلَّا تَقْصِي وَأَنْتَ هَى الْمُطْلَبُ
حَسْبِي عَلَوْا بَأْنَى فِيكَ مَكْتَبُ
فَأَطْلَبُ الْوَصْلَ لِمَا يَضُعُّ الْأَدْبُ
نَامٌ وَشَوْقٌ لَهُ فِي أَصْلِعِ الْهَبُ
صُونًا لِذَكْرِكَ يَعْصِيَ وَيُنْسِكُ
وَجْدِي وَحْزِنِي وَيَجْرِي وَهُوَ مُخْتَضِبُ
يَرْزَالُ فِي لِيلِهِ لِلنَّجْمِ يَسْرِقُ
عَدْنِي عَلَى وَصَبِّي لَا مَسْكُ الْوَصْبُ
قَفْتُ بِي عَلَيْهَا وَقُلْ لِي: هَذِهِ الْكِتْبُ
فِي ثُرِبَاهَا وَبِئْدِي بَعْضُ مَا يَجْبُ
فَلَيْ إِلَى الْبَيَانِ (۱) مِنْ شَرْقِيَّهَا أَرْبُ
نَسِيمِهِ الرَّطْبِ إِنْ ضَلَّتْ بِكَ النَّجْبُ (۲)

يَا مَطْلَبًا لَيْسَ لِي فِي غَيْرِهِ أَرْبُ
وَمَا أَرَانِي أَهْلًا أَنْ تَوَاصِلَنِي
لَكُنْ يَسْنَازُ شَوْقِي نَارَةً أَدْبِي
وَلَسْتُ أَبْرَحُ فِي الْحَسَالِينِ ذَا قَلْقَلَ
وَمَدْمَعٍ كَلِمًا كَفَكَفْتُ صَيْبَهُ
وَيَدْعُ فِي الْهَوَى دَعْيَيْ مَقَاسِمَةٍ
كَالْطَّرْفِ يَرْزَعُمْ تَوْحِيدَ الْحَبِيبِ وَلَا
يَا صَاحِبِي قَدْ عَدَمَتْ الْمَسْعَدِينِ فَسَا
بَالَّهِ إِنْ جَزَتْ كَثِيرًا بَذِي سَلَمِ (۳)
لِيَقْضِي الْخَلْدُ مِنْ أَجْرَاعِهَا (۴) وَطَرَا
وَمَلَ إِلَى الْبَيَانِ (۵) مِنْ شَرْقِيَّهَا كَاظِمَةٌ
وَخَدِ يَمِينَ لِمَغْنِيَّ تَهْقِيَّدِي بَشَدا

(۱) ذُو سَلَمْ: مَوْضِعٌ.

(۲) الْأَجْرَاعُ: الْأَرْضُ الرَّمْلِيَّةُ.

(۳) الْبَيَانُ: شَجَرٌ مِنْ أَشْجَارِ الْبَادِيَّةِ.

(۴) النَّجْبُ: الْأَرْبَلُ السَّرِيعَةُ.

دمعُ المحبين لا الأنداء والسحبُ
 عنِي وألواره لا السمرُ والقضبُ
 فيه وقلباً لغدرٍ ليس ينقلبُ
 به الملاحةُ واعتربت به الرتبُ
 بأنني لهواه فيه مُنتسبُ
 في حبه إنما سُقمي هو العجبُ
 غوثاً وواحرباً لو ينفعُ الحربُ
 يا للرجال ولا وصلٌ ولا سببُ
 لقد حكىَ ولكن فاتك الشنبُ^(١)
 بالله قل لي كيف البَانُ والعَذْبُ^(٢)
 عهداً أراعيه إن شطعوا وإن قربوا
 هُم الأحبةُ إن أعطوا وإن سلبو
 فالعبدُ منهم بذاك البُعد مقتربُ
 فإنه من لذيد الوصولِ مُحتسبُ
 في القلب مشهودَ حُسْنٍ ليس يختجبُ
 عن أن تمنعها الأستارُ والمحبُّ
 في الحسنِ إلا ولاحتْ فوقها رتبُ
 لبَاه شوقٌ إلى معناه مُنتسبُ
 ومن أليم اشتياقي نحوهم حَرَبُ

.. أما القصيدة التي نظمها ابن الخطمي على نفس المنوال، فكانت:

حيث الهضابُ وبطحاماً يرُوُضها
 أكرم به منزلًا تحميء هيئته
 دعني أعلل نفساً عزَّ مطلبيها
 ففيه عاينتُ قدماً حسنَ مَنْ حسنتُ
 أحيا إذا متُ من شوقٍ لسروريته
 ولستُ أعجبُ من جسمِي وصحته
 والهفَّ نفسي لسواجدي تلهيفها
 يمضي الزمانُ وأشواقي مضاعفةُ
 يا بارقاً بآعلي الرقمنين^(١) بدا
 ويا نسيماً سرى من حيٍ كاظمةٍ
 وكيف جيرةً ذاك الحيٍ هل حفظوا
 أم ضيعوا ومرادِي منك ذكرُهُمُ
 إن كان يُرضيَهم إبعاد عبدهمُ
 والهجرُ إن كان يرضيَهم بلا سببٍ
 وإن هُم احتجبوا عنِي فإن لهم
 قد نَزَهَ اللطفُ والإشراقُ بهجته
 ما يتهمي نظري منهم إلى ربِّ
 وكلما لاح معنىً من جمالِهمُ
 أظلُّ دهريولي من جبهم طربُ

(١) الرقمان: موضع.

(٢) الشنب: بياض الأسنان.

(٣) العذب: نوع من الشجر المتمايل.

[البسيط]

جنوا عليًّا ولما أن جنوا عتبوا
ولأنهم غصبوا عيشي فلم غضبوا
لم يبق لي معهم مالٌ ولا نشبُ
وفاترات اللحاظ^(١) السمر والقضب^(٢)
إلا وغاروا على الآيات وانتهوا
إليهم وتمادت بيتنسا جَبَّ
لكن لغيري ذاك العهد قد نسبوا
لدى القوم لإسرائيل^(٣) يتسبَّبُ
عيد الوصال ومنه الذنبُ والغضبُ
والمين منه بزور الوعدِ والكلبُ
ملكًا ويبطل ما يأتي به النسبُ
ما ينتهي في المليعِ المطلق العجبُ
وردي من شقق الخلدين منتفبُ
خمرٌ ودرُّ ثسایاه لها خَبَبُ
من مغرب اللحن^(٥) ما يُنسى به الأدبُ
جناية تُجتنى من مُرّها الضرب^(٤)
تُلْقى إذا نطَقَ الألسُوَاحُ والكتُبُ

للله قوم ب مجرعاء الحمى غَيْبُ
يا ربُّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا
هم العُرَيْبُ بنجد مُذْ عرفتهمُ
شاكون للحرب لكن من قُدوتهمُ
فما أسموا بحِيٍّ أو أَمْ بهمْ
عهدت في زعن البطحاء عهد هوى
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا
مَنْ مُنْصفي من لطيفِ منهمْ غَيْجٌ
مُبْدِلُ القول^(٤) ظلماً لا يفي بما روا
ثُبَيْن لشَفَةَ بالسراة نسَبَتْهُ
مُوَحَّدٌ فيرى كُلُّ السُّوْجُود لَهُ
فمن عجائبه حَدَّثَ ولا حَرَجَ
بسدر ولكن هلاً لاح إذ هو بالـ
في كأس مبسمه من حلويته
فلفظه أبداً سكران يُسمِّعُنا
تجني لسواحظه فينا ومنطقه
حلو الأحاديث والألحاظ ساحرها

(١) اللحاظ: خطوط الكحل في العين.

(٢) السمر والقضب: الرماح والسيوف.

(٣) الإشارة إلى جمال بنت بنى إسرائيل.

(٤) الإشارة إلى تبدل اليهود لتصوّص التوراة.

(٥) اللحن: النطق بلغة غير سليمة، إما للجهل بالسحو أو لفروط الدلال.

(٦) الضرب: نوع من العسل الأبيض، وهو من مصطلحات المنطق، حيث لكل شكل من أشكال القياس عدد من الضروب.

لقد شكت ظلمه الأشعار والخطب
وما جرى في سبيل الحب محستب
فهزه كاهتزاز البارق الحَرِبُ
في قلبه فهو في أحشائه لهب
ماء المدامع من أجنانه سُحبُ
أخبار ذي الأئل^(٤) إلا هزه الطربُ
أجدت رسائله الحُسْنِي ولا القربُ

لم تبق الفاظه معنى يرق لنا
فداوه ما جرى في الدمع من مهجٍ
وبحَّ المتيم^(١) شام البرق من إضم^(٢)
وأسكن البرق من وجدٍ ومن كلفٍ
 وكلما لاح منه بارق بعثت
وما أعادت نسيمات الغوير^(٣) له
واهـاً له أعرض الأحباب عنه وما

* * *

للمزيد عن ابن الخيمي وشعره، يمكن الرجوع إلى:
بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس - حسن المحاضرة في أخبار
مصر والقاهرة للسيوطى - وفيات الأعيان - فوات الوفيات - الواقى بالوفيات -
البدر السافر - شذرات الذهب - العبر في خبر من غير للذهبي ..

(١) المتيم: العاشق المستعبد.

(٢) إضم: موضع.

(٣) الغوير: موضع.

(٤) ذو الأئل: واد معروف.

ابن أَسْعَدُ الْيَافِعِي

(المتوفى ٧٦٨ هجرية)

سُكَارَىٰ وَلَمْ يُسْقُوا مَذَاماً وَإِنَّمَا
سُقُوا حَبَّ حُسْنٍ جَلَّ عَنْ وَصْفِ وَاصِفِ

هو شيخ متصرف القرن الثامن الهجري: عبد الله أَسْعَدُ بْنُ عَلَيْ بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ فَلَاح، نزيل مكة. ولد ببلاد اليمن في غضون ٦٩٨ هجرية، وتوفي بمكة وله من العمر قرابة السبعين عاماً، بعد حياة حافلة بالعلم والمجاهدة الروحية.

كان والده قد توسّم فيه الفلاح من الصغر، فبعث به إلى (عدن) ليتلقى العلوم الدينية، لكن حب الخلوة والسياحة في الجبال غلب عليه، خاصةً بعد لقاءه بالشيخ علي الطواشى الذي لقنه مبادئ التصوف وأصوله. يقول اليافعي عن زمن ابتدائه: «حصل لي في بعض الأيام فكرٌ وترددٌ، هل أنقطع إلى العلم أو إلى العبادة؟ ودخل على بسبب ذلك هم كثير». وبينما أنا كذلك، إذ فتّشت كتاباً لأنظر فيه على قصد التبرك والتفاؤل، فوجدت فيه ورقة لم أكن أراها قبل ذلك رغم كثرة اشتغالني به ونظرتي فيه، وإذا مكتوب فيها: [الكامل]

كُنْ عَنْ هُمُوكَ مُعْرِضاً وَكِيلُ الْأَمْوَالِ إِلَى الْقَضَا
فَلَرِبِّمَا اتَّسَعَ الْمُضِيقُ وَرِبِّمَا ضَاقَ الْفَضَا
وَلَرُبَّ أَمْرٍ مُتَعِّبٍ لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ رَضَا
وَابْشِرْ بِعَاجِلٍ فَرْجَةٌ تَنْسِي بِهَا مَا قَدْ مَضِيَ

الله يفعل ما يشاء فلا تكن مُتعرّضاً

يقول الباعي: «فسكن ما عندي، ثم شرح الله صدرى لملازمة العلم الشريف» وهكذا ولع الباعي بباب التصوف، فتجبرد عن الأشغال الدنيوية، وظل سائحاً بين مكة والمدينة، ثم ارتحل إلى الشام وزار بيت المقدس وقبر الخليل، ونزل مصر حيناً من الدهر، ثم رجع بلاد الحجاز، وقد بلاد اليمن لزيارة شيخه الطواشى، وعاد بعد ذلك إلى مكة ولم يغادرها حتى انتقل لجوار ربه.. . وطوال هذا الترحال، لم تفته حجة واحدة! فكان يؤدى الفريضة، ثم يعاود أسفاره.

وترك الباعي العديد من المؤلفات، منها: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان - روض الرياحين في حكايات الصالحين - تتمة روض الرياحين الموسوم بخلاصة المفاخر في اختصار مناقب الشيخ عبد القادر - نشر المحاسن الغالية في فضل الصوفية أصحاب المقامات العالية - مرهم العلل المعضلة في أصول الدين - الإرشاد والتطریز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز - نشر الروض العطر في حياة سيدنا الخضر - ديوان شعر.

ومن الناحية الصوفية، غلت على الباعي التزعة التاريخية لحياة كبار المتصوفة، وشرح معاني التصوف شرحاً مفصلاً، والدفاع عن المفاهيم التي وضعها أهل الطريق الصوفي.. . كما تميز بإغراق لا مثيل له، في حديث الكرامات!

وكان الباعي شديد الإعجاب بالصوفية الذين ثارت حولهم الأقاويل، كأبي الغيث بن جميل ومحسي الدين بن عربي، كما كان يقلل من قدر ابن تيمية.. . ولهذا انقسم الناس في أمر الباعي لفريقيين: فريق يعظمه ويُعلّى من

قدره، وفريق يحظ من شأنه ويحمل عليه حملة شعواء، ومن الطبيعي أن يكون الفريق الثاني هم الحنابلة أنصار ابن تيمية.

ومن حيث الشعر، أفضض اليافعي في نظم حقائق التصوف، وسبك العديد من القصائد المفردة الطويلة. كما كان يتهز في كتاباته كل فرصة كي يصوغ أبياتاً تعبر عن المعنى الذي يتحدث فيه، فهو - على سبيل المثال - يتوقف في حديثه عن فضل الفقر وذم الدنيا، ليقول:

[الطوبل]

وقائلةً ما المجدُ للمرء والفخرُ
فقلت لها شيءٌ لبيض العلا مهرُ
فأما بني الدنيا فخدرهم الغنا
كزهيرٍ نصیرٍ في غدٍ بيسن الزهرُ
وأما بني الأخرى ففي الفقر فخرهم
نصارته تزدادُ ما بقيَ الدهرُ

وعلى هذا النحو تحتشد الأبيات الشعرية في كتابات اليافعي، بحيث يتلمس من شعر السابقين عليه ما يوافق المعنى الذي يتناوله، فإن لم يجد، وضع هو أبياتاً من تأليفه. ولهذا لا تخلو صفحة واحدة في مؤلفاته من أبيات شعرية.

وشعر اليافعي يغلب عليه طابع النظم، ولا يرقى من الناحية الفنية لشعر المبرزين من شعراء المتتصوفة، لكنه - مع ذلك - لا يخلو من مضات جمالية تلمع في بعض المواطن.. وهي مضات لا تكفي في جملتها لوضعه إلى جانب ابن الفارض والتلمساني وغيرهما من أقطاب الشعر الصوفي.. عموماً، فلن نsurf هنا في الحكم على شعر اليافعي، ذلك أن الناس - كما يقول الأمدي - يختلفون في قدر قبولهم لشاعر دون آخر. فلتنتظر إلى هذه المقتطفات من شعر اليافعي، وتتعرف معاً على طبيعة إنتاجه:

كتب اليافعي قصيدة بعنوان (الراح المختوم والدر المنظوم في مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم) [الطوبل]

فقال في أبياتها:

عسى خبر يلقاكما طيب الذكر
 يفوح به من ريحها فائق التشر^(١)
 وقول لسان الحال في نظمه الدر
 بدت فأضاء الكون من جانب الخضر
 فهمنا سكارى في المهامه^(٢) ، القه
 وكل جمال في الوجود بها يغري^(٣)
 وما راحها ما كاسها ما الهوى العذري
 وأكرم بها في حضرة القدس من خمر
 سقانا وقد غينا وحرنا فما تذرى
 نشوى برياتها إلى آخر الدفري
 لقد صغرت في جنبها ليلة القدر^(٤)
 أتانا أغمر السعد بالخلع الخضر
 وتصريفنا في الملك في البر والبحر
 أمور وأعلمنا بها أنها تجري
 زلت فيه كم حستاء في داخل الخضر
 عن الخلق في كشف الشدائـد والضرـ
 تجرأ على الغر المشايخ بالثغرـ

سلا عن حمى سلمى وعن أهلة الغـ
 يجيء به من نحوها عذب منطقـ
 يخبرـ عن سلمى وعن ذلك الحمىـ
 سقتنا بها سلمى من الراح عندماـ
 اماطت حجابـ عن بهاء جمالهاـ
 نروم التسلـي عن هواها يـعـدنـاـ
 خليلـيـ ما سـلمـيـ ونـجـدـ ماـ الحـمىـ
 شـربـناـ حـمىـ الـحـبـ فيـ قدـسـ حـضـرةـ
 لـناـ عـصـرـتـ مـنـ كـرـمـ نـورـ جـمـالـ مـنـ
 سـكـرـناـ بـهـاـ مـنـ شـمـهـاـ قـبـلـ شـربـهاـ
 فـيـ لـيـلـةـ فـيـهـاـ السـعـادـاتـ وـالـمـسـنـيـ
 فـلـمـاـ شـربـناـ الـراـحـ فـيـ سـاعـةـ الرـضاـ
 رـسـوـلـ عـنـيـاتـ بـرسـمـ وـلـاـيـةـ
 وـضـاءـتـ لـنـاـ آنـوـارـ غـيـبـ وـشـوهـدتـ
 وـحـلـتـ بـسـوـادـيـ طـورـ قـلـبـ معـارـفـ
 وـكـمـ يـدـفعـ اللـهـ الـبـلـاـيـاـ بـسـادـةـ
 فـمـنـ لـمـ بـذـاـ يـؤـمـنـ فـقـولـسـواـ لـهـ إـذـاـ

(١) التـشـرـ: الـرـائـحةـ الـطـيـبةـ الـعـطـرـةـ.

(٢) الـمـهـامـهـ: الصـحرـاءـ.

(٣) يـشيرـ اليـافـعيـ هـنـاـ إـلـىـ المـفـهـومـ الـصـوفـيـ الـخـاصـ بـتـجـليـ الـجـمـالـ الـإـلهـيـ فـيـ كـلـ الـكـرـونـ.

(٤) أـثارـ هـذـاـ الـبـيـتـ حـفـيـظـةـ فـقـهـاءـ الـحـنـابـلـةـ، فـقاـمـواـ بـالـرـدـ عـلـيـهـ مـتـصـرـيـنـ لـفـضـلـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ!

أَيَا مَنْ لَه مَصْحُوبٌ نَفْسٌ وَهَمَةٌ
 تَجْوِلَانْ حَوْلَ الْحَشْ وَالْفَرْنَ وَالْقَدْرِ
 تَجْوِلَانْ حَوْلَ الْعَرْشِ وَالْفِكْرِ وَالْذَّكْرِ
 أَسْيَانْ، لَا وَاللَّهِ مَا السَّكْرَ كَالْسُّكْرِ

وتستمر هذه القصيدة الرائية ذات السبعين بيتاً، مؤكدة فضل الأولياء ومكانتهم، وما سيلقاه المنكر عليهم من ويلات بنص الحديث القدسى^(١)، ثم تنتهي بتوسل إلى الله بالأولياء.. وفي قصيدة أخرى، يتناول اليافعي موضوعاً صوفياً دقيقاً، هو المقابلة بين العلم الظاهر (الشريعة) والعلم الباطن (الحقيقة) وهي مسألة اجتذبت العديد من مؤرخي التصوف وأعلامه. وقد جعل اليافعي قصيدته بعنوان (علبة المعاني الدقيقة في التغزل في الشريعة والحقيقة) وفيها يقول:

وَقَلْبِي بِشَارِيْ مِنْ قِلَّاهَا مَقْلُبٌ
 عَزِيزٌ وَمَنْ لَمْ يَمْنَعْ الرَّوْصَلَ يَتَعَبُ
 فِيْ بَيْنِ هَوَى سَلْمَى وَسَعْدَى مُذَبْدَبٌ
 وَمَنْ دُونَهَا الْأَهْرَالَ بِالْعَزْمِ يَرْكُبُ
 وَلَا ذَا عَلَى أَهْلِ الْمَحْبَةِ يَصْعُبُ
 وَنَسَاءٌ فَمَحْضُ الْفَضْلِ أَرْجُوهُ يَجْذُبُ
 بِشَارَاتِ إِسْعَادِ لَهَا أَتْرَقُبُ
 بِوَصْلِ وَمُشْقَى بِالصَّلْدُودِ مُعَذَّبُ
 أَتَى خَاطِبًا عَنْ رَغْبَةِ فِيهِ تَرْغُبُ
 لَسْلَمِي الشَّرِيعَةِ وَالْتَّمَاثِيلِ أَضْرَبُ
 فَرَادِي بَعَذَبَاتِ الْمَعْنَانِي مَعَذَّبٌ
 تَعْوَضُ عَنْ سَلْمِي بَسْعَدِي^(٢) وَوَصْلُهَا
 مُعَنَّى فَلَا مِنْ ذِي وَلَا ذِي مُوَاصِلٍ
 يُلَاقِي الْعَنَا فِي حِبَّهَا كَيْ يَرِي الْهَنَا
 فَمَا وَصَلَهَا الْفَالِي بِنَفْسِكَ غَالِيَا
 وَلَأَنِي وَإِنْ أَصْبَحْتُ عَنْ ذَاكَ عَاجِزاً
 فَكُمْ مِنْ إِشَارَاتِ لَسْعَدِي تَضَمِّنُهَا
 بِهَا كَمْ مُهَنَّى كَمْ مُعَنَّى فَمُسْعَدٌ
 فَمَا كُلُّ مُشْغُوفٍ بِسَعْدِي مِنَ الْوَرَى
 وَمَدْحِي حُلَى سَعْدِي الْحَقِيقَةِ مَدْحَتِي

(١) الحديث القدسى: من آدى لي ولیاً فقد آذنه بالحرب.

(٢) تشير سلمى إلى الشريعة، أما سعدى فهي رمز الحقيقة.

فُمْسَتَخْرَجُ دُرَّ الْحَقِيقَةِ غَائِصٌ بِبَحْرِ الشَّرِيعَةِ فَالشَّرِيعَةِ مَطْلُبٌ^(۱)

.. ثم تغلب نزعة الملامنة على اليافعي، فيتهلل إلى الله راجياً فضله، ويحط من قدر النفس الأمارة بالسوء فيلومها:

وطَيْبٌ وَوَقْتُهَا لَمَا هُوَ أَصْبُوبُ
بِوَادِي الْهَوَى فِي جَانِبِ الْغَيْرِ تَلْعَبُ
بِعَسْكَرِ نُورِ الرُّوحِ يَعْلُو وَيَغْلُبُ
لِسَانِي مَدِيْ عُمْرِي وَقَلْبِي مُخْرَبٌ
فَمَا صَدَقَ قَوْلِي وَالْفَعَالُ تَكْلُبُ
إِذَا قَلَلَ: كُمْ يَا يَافِعِي النَّحْسُ تَكَلَّبُ؟

فِي رَبِّ أَصْلَحْنَا وَطَهَّرْ قُلُوبِنَا
وَرَأَكَ نَفْوَسًا جَامِحَاتِ غَدَتْ بِنَا
وَلِلْقَلْبِ أَيْسَدٌ كَيْ بِحَقِّ يَسِرْدَهَا
وَسَامِعٌ بِأَقْوَالِ بِهَا صَرَّتْ عَامِرًا
أَحْسَنُ قَسْوَلًا وَالْفَعَالُ قَبِيْحَةَ
فِيَا لَيْتْ شَعْرِي مَا أَقُولُ بِمَوْقِبِ

ويتوقف اليافعي بشعره عند أروع المعاني الصوفية (المحبة) فتراء يدعوه
كسائر الصوفية إلى الموت عشقًا.. فيقول في قصيدة له بعنوان (باب اللب)
[الطوبل]:

بِلَا عَوْضٍ حَاشَاهُ مِنْ طَلْبِ الْأَجْرِ
إِذَا مَا قُتِلَ السِيفُ عَوْضٌ فِي الْحَشْرِ
وَبَيْنَ شَهِيدِ الْحُبِّ وَالسِيفِ فِي الْقَدْرِ
وَفِي حَبِّهِ قَدْ مَاتَ خَالٍ عَنِ الصَّبَرِ
وَمَلْبُوسَهَا وَالْخَيْلُ وَالْحُورُ وَالْقَضَرِ
بِمَوْلَى، وَفَضْلًا جَلٌّ قَدِيرًا عَنِ الْحَضْرِ
وَوَصْلٌ وَقْرَبٌ وَالتَّنَادِيمُ وَالسُّرُّ

قَتِيلُ الْهَوَى فِي مِذْهَبِ الْحُبِّ وَالْفَقْرِ
سَوْيَ رُؤْيَا الْمَحْبُوبِ فِي سَاعَةِ الْلَّقا
فَشْتَانُ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ فِي الْعُلَى
فَمَا طَالِبٌ مَوْلَى لَهُ طَالِ شَوْقَهِ
كَطَالِبٌ مَطْعُومِ الْجَنَانِ وَشَرِبَهَا
كَفِيْ شَرْفًا مَوْتُ الْمَحْبُوبِ صَبَابَةَ
قَتِيلُ جَمَالٍ قَدْ وَدُوهُ بِرَقِيْبَةِ

(۱) يريد اليافعي هنا أن يقول: لا مدخل إلى الحقيقة الباطنة إلا من باب الشريعة الظاهرة.

وأخيراً.. فقد رويت عن بعض رجال التصوف عبارات خطيرة مثل (أنا الحق - سبحاني - ما في العجة غير الله) وغير ذلك من الأقوال التي عرفت في التصوف باسم: الشطحات. وهنا يتوقف اليافعي عند شطح الشاطحين، بقصيدة له يجعلها بعنوان (الدر المنضد في بيان حسن المقصد) فيقول متذمراً عنهم ومبيناً حقيقة حالهم:

بهم في الهوى سكرٌ إلى حشرهم غدا
جمالٌ سقى الأحباب لما لهم بدا
به ولةٌ ظُنْ جُنوناً فَقَيْدا
به جاوز الإسْكَارُ حَدَا فَعَرِبَدا
حدوداً، فرَى الْحَلَاجُ^(١) ماضٍ تَحْدُدا
ولمْ عندَهُمْ يَخْرُجُ عنِ الْقَوْمِ مَلْحَدا
حَمِّيَّ عنِ عَنَائِيَّاتٍ عَزِيزًا مُمْجَدا
رَقَابٌ جَمِيعِ الْأُولَيَاءِ مُسْرُودًا^(٢)
وَيَعْضُ لِتَعْرِيفِ وَنَصْحَ لِيُقْتَدِي
لَكِيلًا يُرَى فِيهِ الصَّلَاحُ فَيُحَمَّدا
وَمَا صَدَقُهُمْ يَعْدُو عَنِ الْحَقِّ مَقْصِدا
تَرَى خَوْفَهُمُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ مُرْعِدًا
مُقِيمِينَ بُرْهَانًا عَلَى مَنْهِجِ الْهَدِي
وَجَاءُوا اعْتِقَادًا نَحْوَهُمْ وَتَوْدُدا

سَلَامٌ عَلَى قَوْمٍ شَمْوَسَ الْهَدِيْ غَدًا
أَدَارَ عَلَيْهِمْ كَأسَ رَاحَ مَحْبَبَة
بِهَا هَامَ بَعْضُ فِي الْبَرَارِي وَيَعْضُهُمْ
وَيَعْضُ عَنِ الْأَكْوَانِ بَانَ وَيَعْضُهُمْ
فَسْلُ عَلَيْهِ الشَّرْعُ سِيفًا حَمِّيَّ بِهِ
فَمَاتَ شَهِيدًا عَنْدَ كُمْ مِنْ مَحْقَقٍ
وَلَكِنْ فَتَى بَسْطَامٍ^(٣) مُؤْفَى بِجَاهِهِ
وَيَعْضُ بِأَمْرِ قَوْلَهُ: قَدَمِي عَلَى
وَيَعْضُ لِهِ التَّأْوِيلُ فِي الشَّطْحِ ظَاهِرًا
وَيَعْضُ إِلَى التَّخْرِيبِ مَالَ مَسْتَرًا
وَلِلْقَوْمِ أَغْرِاضٌ صَحَّاحٌ جَمِيلَةٌ
مَلُوكُ السُّورِيِّ كُلُّ الْمُلُوكِ تَهَسِّبُهُمْ
بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ جَرَدُوا لِسِيَوفِهِمْ
إِلَى أَنْ لَهُمْ كُلُّ الْأَثْمَةِ سَلَمُوا

(١) الْحَلَاجُ: هو أبو المغيث الحسين بن منصور الْحَلَاجُ، المقتول ظلمًا بِيَدِ دَارِسَةِ سَنَةِ ٣٠٩ هـ جريمة بعد محاكمة مشهورة.

(٢) فَتَى بَسْطَامٍ: هو الصوفي المشهور، أبو يزيد البسطامي المتوفى ٢٦١ هـ جريمة.

(٣) عَبَارَةٌ: (قَدَمِي عَلَى رَقَبَةِ كُلِّ تَلِيٍّ)، قالها الإمام عبد القادر الجيلاني المتوفى ٥٦١ هـ جريمة.

ولو أنهم كانوا على باطلٍ لقوا سِيُوناً تُخلِّي لحمَ كُلَّ مبْدَداً

* * *

بالإضافة إلى مؤلفات اليافعي التي ذكرناها هنا، يمكن الرجوع بتصديقه

إلى :

الدرر الكامنة لابن حجر - طبقات الشافعية للسبكي - طبقات الخواص
للشرجي - شذرات الذهب لابن العماد - النجوم الظاهرة لابن تغري بردي -
البدر الطالع للشوكتاني - مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - روضات الجنات
للمخواستاري - كشف الظنون لحاجي خليفة - هدية العارفين للبغدادي - معجم
المؤلفين لعمر كحالة... كما يمكن الرجوع إلى المقالة التي كتبها المستشرق
كرنوكوف عن اليافعي بدائرة المعارف الإسلامية.

بُرهان الدين بن زقاعة

(المتوفى ٨١٦ هجرية)

رأى عَقْلِي، وَلَبَّيْ فِيهِ حَاراً فَأَضْرَمَ فِي صَمِيمِ الْقَلْبِ نَاراً
[الوافر]

تفق المصادر التاريخية على أنه: إبراهيم بن محمد بن بهادر بن أحمد بن عبد الله، الشيخ الإمام العلامة، برهان الدين أبو إسحاق الفرشي النوفلي الغزوي الشافعى، الشهير بابن زقاعة.. هذا ما اتفقت عليه المصادر، لكنها عادت واختلفت حول هذا الرجل اختلافاً كبيراً، كما سنعرض في الصفحات التاليات.

إن أول ما يختلف فيه المؤرخون، هو تحديد العام الذي ولد فيه ابن زقاعة.. المقرizi يقول إنه ولد سنة ٧٤٥ هجرية، وذلك ما يؤكده السخاوي الذي يذكر المزيد من التفاصيل حين يقول: «ولد ابن زقاعة بغزة، في أول [ربيع الأول] سنة خمس وأربعين وسبعمائة، كما سمعه منه شيخنا..» لكن السخاوي يعود فيتشكّك، قائلاً: «وذكر لي مَنْ أثق به، عن مولد ابن زقاعة، غير ذلك!».

والمؤرخ الشهير، ابن تغري بردي يجعل مولد الرجل سنة ٧٢٤ هجرية، ويستدل على صحة ذلك التاريخ، بأن وفاة ابن زقاعة كانت سنة ٨١٦ هجرية، وكان قد بلغ الشيخوخة ووصل من العمر ٩٢ سنة. وبذلك، فإن مولده يكون سنة ٧٢٤ هجرية، على وجه الدقة.

ويرجع الخلاف المتكرر حول تاريخ مولد أعلام الإسلام، إلى أن القرون الماضية لم يهتم أهلها بتسجيل المواليد - كما نفعل اليوم لدعواه إدارية - فكان الخلاف يدور حول مولد الرجال عند اشتهر أمرهم، إلا إذا تزامن مولدهم مع واقعة مشهورة، أو وفاة أحد المعروفين.. وهكذا كان تاريناً السابق يهتم بالأعلام من الرجال دون بقية الجمهمور، ويؤرخ للوفيات بدقة ولا يحدد المواليد. ولنعد إلى ما نحن بصدده، لنرى كيف عاش ابن رُقَّاعة، وما هي أشعاره..؟

* * *

بدأ برهان الدين حياته بغزة، واحترف في صغره صناعة «الخياطة»، لكنه اشغل أيضاً بالعلم، وتلقى من العلوم ما يتلقاه أهل زمانه، فبدأ بتعلم «القراءات» وفنون قراءة المصحف الشريف.. وكان شيخه في ذلك، الإمام شمس الدين الحكري (محمد بن سليمان الحكري، المقرئ، الفقيه الماهر، تولى قضاء المدينة المنورة، ثم تولى قضاء القدس وغزة، وناب في عدة جهات بالديار المصرية.. توفي سنة ٧٨٢ هجرية) وبعد إتقانه القراءات، درس ابن رُقَّاعة قواعد الفقه الشافعي على يد الشيخ: بدر الدين حسن بن يوسف القوني - نسبة إلى مدينة قونية الرومية - الشافعي، المتوفى ٧٧٦ هجرية. كما درس ابن رُقَّاعة علم الحديث النبوي على يد شيخه نور الدين علي بن أحمد الفوي المدنبي المحدث، المتوفى بمصر سنة ٧٨٢ هجرية.

ولما جاء أوان دخوله أرض التصوف، التقى برهان الدين بواحد من ذرية الإمام عبد القادر الجيلاني. تلك الذرية التي انتقلت من بغداد بعد فاجعة سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦، لتسفر فروعها بمصر والشام وببلاد الروم^(١). وكان من استقرروا بغزة، الشيخ عمر «حفيد» الإمام عبد القادر

(١) بخصوص انتشار القدرية في العالم الإسلامي، يمكن الرجوع للباب الأخير من بحثنا: الطريق =

الجيلاني .. ومن الشيخ عمر الحفيد، عرف ابن رقاعة أصول الطريق الصوفي ، وتعلم طرق مجاهدة النفس وكسر حدة شهواتها ، وغير ذلك من الرياضات الروحية التي مارسها الصوفية آنذاك .. وقد كان من جملة هذه الرياضات السياحة في الأرض .

ينظر الصوفية للسياحة نظرة خاصة ، فهم يرون ضرورة سفر المتصوف وانتقاله من موضع لأخر ، حتى لا يركن إلى أرضٍ بعينها فيرتبط بها ، بل يرتحل في أرض الله ، غير مرتبط إلا بمولاه عزّ وجلّ^(۱) . وقد ساح ابن رقاعة على طريقة الصوفية المتجردين ، فمرّ على العديد من البلدان ، وعرف الكثير من مظاهر تنوع الخلق بقدرة الخالق .

ويبدو أن ابن رقاعة قد انشغل في ارتحالاته - إلى جانب كونها رياضة صوفية - بتحصيل العلوم والمعارف . فقد اهتم بالجغرافية ومواضع البلدان ، كما ألم بالفلك وموقع النجوم ، كما جرت على يديه في تلك الرحلات بعض الكرامات .. يقول الشيخ محمد القرمي : « كنت يوماً في خلوة ، فسألت الله تعالى أن يبعث لي قميصاً على يد أوليائه ، فإذا بالشيخ برهان الدين ابن رقاعة ، ومعه قميص ، فقال : « أعطوا هذا » تبصّر لشيخ ». وانصرف من ساعته .. ثم يروي القرمي :

« أول ما اجتمعت به ، في سنة تسعة وسبعين ، فسمعت من نظمه وفوائده ، ثم اجتمعت به بغزة قبل تحوله إلى القاهرة ، وسمعت كذلك من نظمه وفوائده ، ثم كثر اجتماعنا بعد سكناه القاهرة ، وقد حجّ وجاء ، وأجاز

= الصوفي وفرع القادرية بمصر .. وبخصوص فروع القادرية بالشام وفلسطين ، يرجى اجمع التأديفي : قلائد الجواد في ترجمة الشيخ عبد القادر .

(۱) يعد البسطامي استثناءً لتلك القاعدة الصوفية ، وكان يقول : صاحبي لا يسافر وإنما معه مقيم .. ليس الرجل من يرحل مع القافلة ، لكن الرجل من إذا وصلت القافلة ، وجدته هناك

لي رواية نُظمه، وتصانيفه منها: القصيدة الثانية في صفة الأرض وما احتوت عليه، وكانت أولًا خمسة بيت، ثم زاد فيها إلى أن تجاوزت خمسة آلاف.. ومن نظمه في قصيدة نبوية:

غضنْ بسانِ بطيءٍ^(١)
منْ صبَّايَ هَرْئَشَةَ
قمرَ لاخَ نُورَهَ
غَجَباً كَيْفَ لَمْ يَكُنْ
ذَلْكَ حِينَ بَغْشَهَ
أَسْدَ سِيفَ دِينَهَ
فَاتَحَ مَطْلَبَ الْهَدَى
أَحْمَدَ سَيِّدَ السُّورَى
مَثْلَ مَا شَادَ شَالِحَ
يَا نُخِيلَاتِ وَجْدَهَ^(٤)
فِي حشا الصَّبُّ رَاسِخَ
وَانَا الآن شَائِخَ
فَاسْتَضَاءَتْ فَرَاسِخَ
كَاتِبَاً وَهُونَاسِخَ^(٢)
مِنْ قُرْشِ شَوَامِخَ
ذَابَحُ الشَّرُكِ شَالِحَ
وَعَلَى الشَّرُكِ شَارِخَ
وَيَسِ شَادَ شَالِحَ
مِنْ قَدِيمِ وَفَالِحَ^(٣)
إِنْ دَمَعِي شَماَرَخَ^(٤)

ولا شك في أن هذه الأبيات لا تخلو من وعورة ووحشية، تخالف ما نراه غالباً في الشعر الصوفي من رقة ولين. ولعل ذلك يرجع إلى قافية «الخاء» التي اختارها ابن رفاعة لهذه الأبيات، وهي قافية وعرة ذات إيقاع مزعج، جعلته يقع على الألفاظ الصادمة.. . ومع ذلك، فهناك أبيات أخرى لابن رفاعة، تمتاز برقة وانسياب لفظي. فمن رقيق أبياته المناسبة، قوله:

(١) طيبة: المدينة المنورة.

(٢) يقصد: كيف نسخ النبي الشرائع - والنحو من أعمال الكتابة - مع أنه أهي.

(٣) شالِح وفالِح : من أبناء نوح وأبناء النبي إبراهيم.. والإشارة هنا، إلى ثبوت النبوة لمحمد ﷺ قبل خلقه البدنى.

(٤) الشمارِخ: قناديل كبيرة، هي أول طلع التحيل.

[الطوبل]

ومن عجَبٍ أَنَّ النَّسِيمَ إِذَا سَرَى
سُحِيرًا يَعْرُفُ الْبَانَ وَالرَّنْدَ وَالْأَسْرَ
يَعِيدُ عَلَى سَمْعِي حَدِيثَ أَجْبَتِي
فِي خَطْرِ لِي أَنَّ الْأَحَبَّةَ جُلَّاسِي
.. ولترجع إلى وقائع حياة ابن رُقَاعَة، حيث نراه وقد عاد إلى غَرَّة بعد
أن أحاط بأطرافِ من علوم وفنون عدَّة، فعظم قدره عند الناس ويبلغ صيته
القاهرة، وصارت له مكانة عند معاصريه، حتى إنه استقدم مسراً من غَرَّة إلى
القاهرة لحضور المولد النبوى الشريف بها، تقديراً لمكانته.. وفي هذه
المرات، بدأت علاقته بالمحاكم! يقول السخاوي :

«وطَارَ ذَكْرُهُ وَبَعْدَ صَيْتِهِ فِي أَوَّلِ دُولَةِ الظَّاهِرِ بِرْقُوقِ.. فَلَمَّا اسْتَبَدَّ أَبْنَهُ
الناصِرُ فرجُ بْنُ بِرْقُوقِ، تَحَصَّصَ بِهِ أَبْنَ رُقَاعَةَ، وَتَحَوَّلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ بَعْدَ
الْكَائِنَةِ الْعَظِيمِ بِدِمْشِقِ، وَسَكَنَ مِصْرَ عَلَى شَاطِئِ النَّيلِ، وَتَقَدَّمَ عَنِ النَّاصِرِ
جَدَّاً، حَتَّى كَانَ لَا يَخْرُجَ إِلَى الْأَسْفَارِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ لَهُ أَبْنَ رُقَاعَةَ الطَّالِعِ،
وَلَا يَتَعْدِي الْوَقْتِ الَّذِي عَيْنَهُ لَهُ، فَنَقَمَ عَلَيْهِ الْمُؤْيَدُ، وَنَالَتْهُ مِنْهُ مَحْنَةٌ فِي أَوَّلِ
دُولَتِهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَاسْتَمْرَرَ خَمُولَهُ بِالْقَاهِرَةِ حَتَّى مَاتَ..».

ويظهر من كلام السخاوي، أن ابن رُقَاعَة قد وقع في المحظور الذي
طالما حذر منه أقطاب التصوف، أعني الوقوف على أبواب المسلمين.. فها
هو ينادم الفرج بن برقوق، ويُسخرُ ما تعلمَه في خدمة (الطالع) حتى يُرضي
الحاكم، وحتى يناله سخط المحاكم الآخر، وحتى يصير مرة أخرى موضعًا
لاختلاف المؤرخين..

اختلف المؤرخون في قيمة ابن رُقَاعَة بعد صحبته للسلطان. فمن ناحية
يصفه التقى المقرizi بأنه «كان مكتثراً مهداراً يُؤثر عنه مخاريق وشعبنة» ومن
ناحية أخرى يقول السخاوي: «وآخرون كانوا يعتقدون علمه وفضله، ومن

الصوفية مَنْ كان يزعم أنه يعلم الحرف والاسم الأعظم، بل وصفه الجمال بن ظهيرة - وناهيك به - بشيخنا الإمام العلامة شيخ الطريقة والحقيقة . . .» كما تظهر بعض نواحي اختلاف المؤرخين حول ابن رُقاعة، في قول ابن تغري بردي : «كانت رياسته في علوم كثيرة، وله حظٌ زائدٌ عند ملوك مصر، الظاهر برقوش ولده الناصر فرج، ونال من الحرمة والوجاهة ما لم ينلَه غيره من أبناء جنسه، بحيث إنه كان يجلس فوق قضاة القضاة؛ وقد سأله عن قاضي القضاة، الحافظ شهاب الدين بن حجر، فقال: كان قد اشتغل على عقل الملك الظاهر برقوش وحظي عنده، ثم عند ولده الناصر فرج، وكان يعرف الأعشاب . ولم يُزد على ذلك . . .». وفي إجابة ابن حجر، وتعليق ابن تغري بردي ، نلمح ذلك الحرج من التصریح برأيهما في ابن رُقاعة.

وأما من حيث شعره الصوفي ، فقد ترك ابن رُقاعة الكثير مما لا خلاف حول جودته . . . فمن أشعاره التي اشتهرت ، تلك الأبيات التي يشكو فيها حيرة المحب ووجده :

فأضَرَّمْ في صَمِيمِ الْقَلْبِ نَسَاراً
عَلَى الْأَعْتَابِ أَحِبَّهُ نَهَاراً
أَصْفَهُ لَهُمْ، فَيَنْقَلِبُوا حَيَارِي
تَضَامِّنْ عن أَبَاطِيلِ النَّصَارَى
وَسُلْوانِي، قَدْ ارْتَحَلَ وَسَارَا
عَلَى قَلْبِي، فَأَعْدَمَهُ الْفَرَارَا
فَأُورَثَنِي عَنَاءً وَأَنْكِسَارَا
وَعَشْرِينَ تَرَادَفُهَا اسْتِسَارَا
سَرَائِرَ سِرَّ مَا أَنْفَيَ، جَهَارَا

رَأَى عَقْلِي، وَلُبِّيَ فِيهِ حَسَارَا
وَخَلَانِي أَبِيَتِ اللَّيلَ مُلْقِي
إِذَا لَامَ الْعَوَادِلَ فِيهِ جَهْلَا
وَإِنْ ذَكَرُوا السُّلُوْقَ يَقُولُ قَلْبِي :
وَمَا عَلِمَ الْعَوَادِلُ أَنَّ صَبْرِي
فِيَاسَ اللَّهِ مِنْ وَجْدٍ تَسْوِلِي
وَمَنْ حُبَّ تَقَادَمَ فِيهِ عَهْدِي
قَضَيْتُ هَوَاهُمْ عَشْرِينَ عَاماً
فَنَمَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي فَأَبْدِي

إذا ما نسمة البَانَاتِ^(١) مررت
وَصَافَحَتِ الْخَزَامَ وَعَنْقُواْنَا^(٢)
جَدَارَ دِيَارِ مَنْ أَهْوى قديماً
أَلَا يَا لَا شَمِيْ دَعْنِي فَلَائِبِي
فَاهْلَ الْحَبْ قَدْ سَكَرُوا وَلَكِنْ

عَلَى نَجَدِ وَصَافَحَتِ الْعَرَارَا^(٣)
وَشِيعَا ثُمَّ قَبْلَتِ الْجَدَارَا
رَعَى الرَّحْمَنْ هَاتِيكَ الدِّيَارَا
رَأَيَتِ الْمَوْتَ حِجْجَا وَاعْتَمَارَا
صَحَا كُلُّ، وَفَرَقْتَنَا سَكَارِي

وفي البيت الأخير من تلك المقطوعة الشعرية، يفرق ابن رُقَاعَة بين الحب الصوفي وغيره من ألوان المحبة.. فالمحبون على اختلاف محبتهم يسكون بمحبوبهم حيناً، ثم يصحون من سكرهم. أما الصوفي، فهو سكران أبداً بمحبته الإلهية، لا يصحو من نشوته الأزلية الأبدية.. وهذا المعنى، قريبٌ مما قاله عبد الكريم الجيلي حين وصف العاشق الصوفي - في قصيدة النادرات - فقال:

صَحَا النَّاسُ مِنْ سُكُرِ الْغَرَامِ وَمَا صَحَا
وَفَرَقَ كُلُّ وَهُوَ فِي الْحَانِ جَامِعٌ

ومن حيد شعر ابن رُقَاعَة، تلك الأبيات الغزلية الرقيقة التي يتغنى فيها بجمال المحبوب مستخدماً طريقة الصوفية التي تبدو في ظاهر الأمر كأنها غزل في معشقة حسية، بينما المراد الحقيقي هو جمال الذات الإلهية.. . ومع أن ابن رُقَاعَة لم يكن مضطراً لكل هذه الرمزية التي ربما اضطر إليها الصوفية السابقون عليه، إلا أنه آثر أن يسلك مسلكهم الرمزي، فيقول:

(١) بَانَاتٌ: جمع «بان» وهو من نبات البدية.

(٢) العَرَارٌ: نبات طيب الرائحة.

(٣) الْخَزَامٌ: نبات طيب الرائحة له زهر أحمر فوائح.. والعنوان: شجر يشبه شجر الرمان، ورقة أحمر. وجميع النباتات المذكورة هنا، تكثر في نجد.

[الطوبل]

مشائخ علم السحر عن لحوظه رروا
من المُسْكِ فوق الجُلَنَارِ قد التسووا
عليها قُلُوبُ العاشقينَ قد انكسوا
لقولِ حُسُودٍ والعواذلِ إن عسوا
فكيف وأخشائي على حَبَّه انطروا
ووردي خد ترجسي اللواحيظ
وواوات صدغيه حَكَيْنَ عَقَارِباً
ووجهتة الحمرا تلوخ كجمرة
وودي لَهُ بِسَاقٍ ولَسْتُ بِسَامِعٍ
ووالله لا أسلو ولو صرتِ رِمَةً
ومع ما في هذه الأبيات من رقة، إلا أنها لا تخلو من افتعال وتقليد،
 فهو يستخدم تعبيراً تقليدياً آنذاك «واوات الصدغ»، ويقتصر الوصف ويعتمد
به كل بيت بحرف «الواو»، ثم ينافي الرقة حتى يأتي بلفظ «رمّة» في البيت
الأخير.. عموماً، فلستنا في معرض نقد الشعر، وما يهمنا الآن هو التعرف
على المزيد من شعر الرجل.

يدرك المترجمون لابن رفاعة هذه الأبيات التي يتossل فيها بالحوايم
والسور السبع - وغير ذلك - آملأ أن تتفجر في قلبه ينابيع المحبة.. فيقول:
[الوافر]

وبالسبعين المطولة القديمة
فيه قبل الحروف المستقيمة
وبالأرض المقدسة الكريمة
طيور قلوب أصحاب العزيمة
وبالمنشور في يوم الوليمة
أبو فتيانها ورأت رقيمة
بأحجار بهجرتها مقيمة:

سألك بالحوايم العظيمة
 وباللامين والفرض المبدأ
 وبالقطب الكبير وصاحبته^(١)
 وبالغصن الذي عكفت عليه
 وبالمسطور في رق المعاني^(٢)
 وبالكهف الذي قد حل فيه
 وبالمعمور من زمن التصابي^(٣)

(١) الإشارة هنا إلى القطب والإمامين، وهما قمة الهرم التنظيمي للولاية عند الصوفية المتأخرین.

(٢) الإشارة إلى «اللوح المحفوظ».

(٣) البيت المعمور، بيت في السماء يقابل الكعبة.. وزمن التصابي: عالم الذر.

تفجر من فؤادي عين حبٌ تروي في مساراتِها صميمه

ومريدو ابن رقاعة وتلاميذه، كانوا يعتنون بهذه الأبيات، ويؤكدون أن فيها الاسم الأعظم! ذلك الاسم الذي ذهب بعض المتصوفة إلى أنه الاسم المتمم للأسماء الحسنة التسعة والتسعين، فهو الاسم المائة الذي لا يعرفه إلا خاصة الأولياء، ويمكن لمن يعرفه أن يتصرف في الوجود بهذا الاسم. ومع أن بعض أقطاب التصوف - كالجيلاني - أكدوا أن «الاسم الأعظم» لا يتصرف في الوجود بخاصيته، بل يصدق المتلحظ به. إلا أن المتصوفة في عصور الضعف كانوا يفتشون عن هذا الاسم، ظلّا منهم بأنه قادر على التصرف في الموجودات والتأثير فيها.. وربما كان البحث عن هذا الاسم هو السر وراء اهتمام الصوفية - بعد القرن السابع الهجري - بالعلوم الخفية، وهو اهتمام يتردد صداه عند ابن رقاعة، الذي وصفه السخاوي بأنه كان عارفاً بالأوقاف وما يتعلّق بعلم الحرف^(١).. فإذا كان كبار المتصوفة من أمثال «ابن عربي» قد تناولوا الحروف تناولاً تأملياً، فإن المتأخرین قد نظروا إلى الحروف نظرة تفعية تحاول تحقيق غير الممكن بمعرفة سر الحرف وبامتلاك الاسم الأعظم الذي يعد صياغة أخرى لفكرة مصباح علاء الدين!

ولابن رقاعة أشعارٌ ليست من الشعر الصوفي، فقد مرّ علينا أنه ألف قصيدة تائية بلغت خمسة آلاف بيت، كان موضوعها الجغرافيا ومواقع البلدان. كما ذكرنا له أبيات في المدح، تدخل في شعر المدائح النبوية أكثر

(١) علم الحروف كما يعرفه المتأخرون، هو: علم يباحث في خواص الحروف إفراداً وتركيباً، وموضوعه الحروف الهجائية، ومادته الأوقاف والتراكيب.. وغايتها التصرف على وجه يحصل به المطلوب ليقاعاً وانتزاعاً، ومرتبته بعد الروحانيات والفلك والتنجيم !!

مما تدخل في الشعر الصوفي . . كذلك نجد له بعض الأبيات في الشاء على معاصريه، كقوله في مدح قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة: [الواقر]

لِسِمْلَةِ أَحْمَدِ بِرْهَانِ دِينٍ يَقُومُ بِحَفْظِهَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ
فَمِنْتُ فِي حُبِّهِ إِنْ شَتَّ تَحِيَا فَذَا الْبَرْهَانُ قَدْ أَحْيَا جَمَاعَةً

ومن الواضح هنا أن ابن رُقَاعَة يستغل الجنس والتشابه اللفظي بين اسم الرجل ومعنىه لكن هذه الأبيات، وما يشاكلها، لا تدخل في إطار الشعر الصوفي . . وإن كانت تدلّ على بعض الجوانب من شخصية ابن رُقَاعَة^(١).

ويبدو أن الشيخ برهان الدين بن رُقَاعَة قد خُتم له بخير. فقد رُوي أنه بعدما أعرض عنه المؤيد وأغضى عن سوابقه، اعتزل الناس، وجاور بمكة زماناً، ثم عاد ليتوفى في القاهرة.

وترى ابن رُقَاعَة - غير الشعر - بعض المؤلفات، مثل: دوحة الورد في معرفة النزد - تعريب التعجيم في حرف الجيم.

* * *

انظر ترجمة ابن رُقَاعَة ومقططفات أشعاره في:
الضوء اللامع للسخاوي - المنهل الصافي لابن تغري بردي - شذرات الذهب.

(١) لم يؤثر عن الصوفية مدحهم للمعاصرين شعراً . . اللهم إلا مدح الواحد منهم لشيخه في الطريق .

عبدالهادي السُّودي اليماني

(المتوفى ٩٣٢ هجرية)

لَا تَحْسِبُوا يَا قَوْمَ قَلْبِيْ حَافِقًا
لَحَثَّةً طَرَبَا عَلَيْهِ يُصَفِّقُ
[الوافر]

بدأ التصوف في اليمن منذ وقت مبكر، واحتلت هذه البلاد مكانة روحية متميزة في الفجر الأول للإسلام، وهي المكانة التي تعكسها مجموعة من الأحاديث النبوية، منها: الإيمان يمان، والحكمة يمانية.. وإنني لأجد نفس الرحمن يأتيوني من قبل اليمن.

وعلى أرض اليمن، عاش جماعة من مشاهير أهل الطريق الصوفي، وكأنهم قد آثروا الانزواء في هذه البلاد بعيدة عن صخب الحياة العارمة في العراق والشام ومصر، فكان تصوفهم هناك عميقاً وموغلأً في التفرد. ومن أسماء الصوفية في اليمن عبر تاريخه الطويل نجد (أويس بن عامر القرني، أبو الغيث بن جميل، شرف الدين الجبرتي، أحمد الرداد، حاتم الأهدل، آل العيدروس...). ونجد أيضاً الهادي اليماني.

بدأ أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم السُّودي^(١)، الشهير بالهادي اليماني، بتعلم فنون اللغة والتاريخ وعلوم الدين. ثم دخل الطريق بعد واقعة تأملية فقد كان يدرس الفقه على يد بعض العلماء، فتسوّق عنده المسألة الفقهية (العبد لا يملك شيئاً مع سيده) فظل يسأل أستاذه في هذه المسألة،

(١) السُّودي: نسبة إلى قرية تسمى (سودة شضب) بنواحي صنعاء.

ويحمل كل الإجابات على الصلة بين الإنسان وربه، حتى اعتبره هيبة عظيمة نزلت بقلبه، وأخله جذب شديد إلى آفاق الحضرة الإلهية، فوجد نفسه يسير على درب الصوفية حتى آخر عمره.. وهكذا هجر الهادي اليمني كل العلوم إلا العلم بالله عز وجل، لذا ثراه يقول:

[البسيط]
وانس العلوم، وما قد كنت تكتبه فمحوه واجب من كسل مكتب^(١)

وكان الهادي اليمني يقوم بالرياضات الروحية كالتهجد والصوم الكثير والجوع والسهور.. مما جعله يولع بشرب القهوة، فكان يطبخها على النار بنفسه، ويُكثر من شربها في كل وقت، وكان إذا جاءته هدية، أو قدم بها النار تحت القهوة! وقد روى المؤرخون ذلك دون أن يفطنوا للدلالة الرمزية لهذا المسلك، فالهادي اليمني يريد أن يقول بهذا الفعل: إن كل متع الحياة يجب أن يسخر لما يقرب من الله. وقد كانت القهوة تعينه على السهر والتهجد والتأمل الليلي في ملوكوت الله، ولذا وجد أن كل ما عدتها من المتع الدنيوية لا يستحق إلا النار التي تنضجها.

ويروي المؤرخ اليمني عبد القادر العيدروس في كتابه (النور السافر) بعض كرامات الشيخ في مسألة القهوة هذه.. فقد قيل إن السلطان عامر بن عبد الوهاب، بعث إلى الهادي اليمني بشوب نفيس، فألقاه في النار التي تحت إباء القهوة! وبلغ السلطان ذلك فغضب غضباً شديداً، وأرسل يطلب منه الشوب، فادخل الهادي اليمني يده في النار، وأخرج الشوب منها ودفعه إليه. وأياً ما كان من صدق هذه الحكاية، فالشاهد هنا أن الهادي اليمني لم يكن يلتفت لزخرف الحياة الدنيا. ولقد رويت عن العديد من رجال التصرف

(١) هناك شرح مطول لهذا البيت، وضعه العيدروس ضمن كتابه (النور السافر).

حكايات قريبة من ذلك، تدل كلها على صدق زهدهم.. المهم أن ولع الهدى السودي بالقهوة، صار دليلاً على فضلها عند من جاءوا بعده، فهذا هو عبد المعطي باكثير يقول في موشحة:

قهوة البن جل مقصودي في الخفا والعلن
هام فيها إمامنا السودي قطب أهل اليمن
وطبخها بالنجد والمودي^(١) وبغالي الثمن

ونال السودي اليمني شهرة كبيرة في حياته، ووصف بأنه (قطب العارفين وسلطان العاشقين) وهي ألقاب تخلع دوماً على كبار رجال التصوف. وكانت وفاته بمدينة تعز، ويني على قبره قبة عظيمة جعلت مدفنه مزاراً مشهوراً. ولم يترك من ذرية إلا ولدين، مات الأول في حياة والده، وعاش الآخر بعده زمناً وتولى قضاء تعز حتى استولى عليها العثمانيون، فنفوه إلى مصر، فمات هناك في حدود سنة ٩٦٠ هجرية.

ونأتي للشعر عند الهدى السودي اليمني، فنجد المؤرخين يشبهون شعره بأشعار التلمساني السرقية، ويطلقون عليه لقب (فارضي اليمن) نسبة إلى الشاعر الصوفي المصري الأشهر عمر بن الفارض. وكانت علاقة السودي بالشعر غريبة، فهو لا يعرف الشعر إلا في حالات الجذب الروحي الشديد، فإذا غلب عليه الجذب، أخذ يكتب أشعاراً بالفحم فوق الجدران، وبعد إفاقته من جذبه يمحو ما كتبه^(٢).. فانتبه مريدوه لذلك، فكانوا يبادرون بكتابة ما يجدونه على الجدران قبل أن يزيله هو، فجمعوا بذلك ديوانه

(١) العود والنجد: نباتات عطرية تستخدم بخوراً.

(٢) يحكي أحد المنشدين المعاصرین للشيخ، أنه أنسد بين يديه قصيدة من نظمه، فطرب لها وتمايل، ثم سأله عن قائلها فقيل له: إنها من تأليفه هو.. فأنكر ذلك قائلاً: حاشا، ما قلت شيئاً.

الشعري الذي بقي إلى يومنا هذا مخطوطاً، والذي نود يوماً أن ننشره في طبعة محققة، كي تعرف على طبيعة تصوف صاحبه، وبالتالي طبيعة التصوف في اليمن إبان القرن العاشر الهجري.

[الكامل]

ومن شعره الذي أنقله مریدوه، قوله:

يا بانياً والبُنْ يهسلم ما بني
واشتمَ أنفاسي ينزل عنك العنا
وأنا الدليل لهم على كنز الغنى
مَنْ نالها أو بعضها نالَ الْهَنَا
ليس القتيل بحبيكم إلا أنا
والحبُّ لي ما شطٌ منه وما دنا
أو راجياً لدوم وصلٌ يُجتنى
وبكم عليكم في الهوى إذلالنا

يا مقعد العزمات يا عبد الهوى
رُزني أعلمك الهوى وفسونه
فأنا إمام جوشة وجندوه
لي في الغرام حقائق ودقائق
يا نازلين على مني وحياتكم
لِكُمُ الجمال بدعيه وغريبه
لا تحسبوني خائفاً من هجركم
هيئات لي شغل بكم عن ذا وذا

ثم ينتقل السودي اليمني بشعره من هذه الأبيات الغزلية في معنى المحبة، إلى أبيات أخرى يتناول فيها الفكرة الصوفية الخاصة بحيرة الخلق وغريتهم عن الله، مع أنه تعالى الموجود الوحد في الكون، وما عداه مجرد أوهام يظنهما الخلق حقائق، وهي في الحقيقة أوهام الحجب التي تنطوي بصيرة الجاهلين بالله . يقول الشيخ في قصيدة له ذاكراً أحيرته أمام الحقيقة الإلهية:

[المديد]

ليس عندَ الخلق من خبرٍ عنك يا أغلوطة الفَكَرِ
تاهت الألبابُ فيك وما ميَّزَتْ ورداً من الصُّدرِ^(١)

(١) عجز البيت مضطرب الوزن.

حيرة عمت فائي فتى
عميت أنباء ذاك على
وقدا يسأل بعضهم
فانشروا والله ما وقعوا
بل عظيم القوم مطلبه
كيف حاروا فيك واعجب
بالظهور الصرف محتجب
لو تلاشت عنهم ظلم
شاهدوا معنك منبطحا
ودروا أن الحجاب هم
وقضى يعقوب حاجته

رام عرفاناً ولم يجرِ
كل من في البدو والحضر
عنك بعضاً علّ من ظفر
لا على عينٍ ولا أثرٍ
شدة التحير والحضر
يامن سمعي ويا بصري
أنت هذا صَحْ في الخبرِ
وانمحوا عن عالم الصور
ساريَا في سائر الفطرِ
عن شهود المنظر النضرِ
وانتهى زيد إلى السوَطْرِ

ثم يعاود الشيخ بث أشواقه للذات الإلهية، التي يكنى عنها بأسماء
سعاد وليلي، فيشرح مواجه روحه التي رقتها المحبة ثم هدّها الهجر..
[الخفيف]

يقول المحب اليمني :

ويراني وهـ ركني البعـاد
طيب عيشي وزار جفني الشهـاد
علـ ليلـ يـكونـ منها افتـقادـ
ولـقاـكمـ هو الشـفـاـ والمـسـرـادـ
لا حظـونـيـ ماـ قدـ مضـيـ لاـ يـعادـ
هـكـذاـ هـكـذاـ يـكـونـ الـوـدـادـ
ومـريـضـ فـهـلـ تـرـؤـنـيـ أـعـادـ
إـلـيـكـمـ يـحـنـ وـيـنـيـ الـفـرـادـ
وـالـسوـيدـاـ تـشـافـكـمـ وـالـسوـادـ

عـذـبـتـيـ بـالـمـطـلـ مـنـهاـ سـعـادـ
وـجـفـانـيـ مـنـ بـعـدـ مـاـ هـجـرـتـيـ
لـوـتـرـانـيـ أـسـامـرـ النـجـمـ ليـلـاـ
يـاـ أـخـلـاثـيـ أـصـلـ سـقـمـيـ أـنـتمـ
عـاملـونـيـ بـالـلـطـفـ يـاـ أـهـلـ وـديـ
ذـاكـ آهـنـ السـوـصالـ لـاـ شـكـ فـيـهـ
أـنـ مـمـلـوكـكـمـ عـلـىـ كـلـ حـالـ
يـاـ أـهـيـلـ الـحـمـيـ حلـلتـمـ بـقـلـبيـ
كـلـ كـلـ بـحـبـكـمـ مـسـتـهـامـ

لا يحقّ البكاء إلا علیکم وعلى وصلکم يليق الجهاد^(١)

ويبدو أن بعضًا من نفحات الوصال هبت على قلب العاشق الرباني،
فهامت روحه بالوصل، فغنّى:

ما طاب عيشي ولا وجودي
ونقر دف وصوت عودي
وليلة الوصل منك عيدي
يكفي من الهجر والصادود
لا سيمًا للشجي العميد
لبلا على السفح من زرود^(٢)
عودي ليحضر منك عودي

لسلاك يا زينة الوجود
ولا شجاني وميض برق
أنت الذي همت في هواء
بالله زرنسي فدتك روحي
ما أصعب الهجر من حبيب
وما أحيلا وصال ليلي
فيما ليسالي اللقاء علينا

ثم تزداد نفحات سواعن الوصال، فتعصف بوجود المحب وبوجوده
الهزيل، فيهتز طرباً، ويدعو الكون كله لرقصة اللقاء.. فيقول في أبيات له:
[من الواقر]

فأين الراقصون على الغماء
وترضى بالقصاؤة والعناء
فهل طرباً كغصٍ في هواء
فإن العدل عندي كالهباء

لقد غنى الحبيب لكل صَبْ
أيشدو منْ تحبُ وأنت قاسٌ
إذا ما كنت صباً مستهاماً
وقل للعادلين دعوا ملامي

(١) قام عبد القادر العيدروس بشرح هذه القصيدة في كتابه (جواهر الأحياء وإمدادات الأولياء) وسمى الشرح: فتح الله الججاد بشرح عذبتي بالمثل منها سعاد.

(٢) زرود: منطقة رملية بين الشعلية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة، سميت بزرود، أي بلوع، لا يتلاعها الماء عند المطر (معجم البلدان لياقوت الحموي ١٣٩/٣).

أفي أهل اللوى وعريب نجد
أطيعكم وقد سكنوا حشائى
معاذ الله أن أصفي إليكم نعمُ الْقِي ملامكُم ورائي
وأنهراً . يضع السودي اليمني شهادة واعترافاً بأنه لن يقلع يوماً عن
الحب الساكن في أحشائه، وأنه لم يعرف السكر من المخمر الحسية المحرمة
ولإنما سكر من خمر جمال المحبوب : [الواهر]

معاذ الله أن أسلو عَرِيبَاً
هواهم في الحشا أرسى خيامه
ثملت بهم وما خامر ت خمراً
ولا دانيت أدنان المدامه
رعن الله الأبيرق والمُصلى
وبان^(١) الحي ما سجعت حمامه
فتلك مواطن الصب المعنى
بها الأرواح صارت مُستهامة
على عَربٍ بها مِنِي سلام

* * *

بخصوص عبد الهادي السودي وشعره، يمكن الرجوع إلى :

- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، للعيديروس.
- ديوان عبد الهادي السودي (مخطوط).
- شرح النابليسي على قصيدة النادرات العينية (مخطوط).
- شذرات الذهب.

(١) الأبيرق والمُصلى : موضعان بأرض الحجاز. والبان : شجر من أشجار البدية .

أبو الوفا الشرقاوي

(المتوفى ١٣٨٠ هجرية)

بُرُوقْ جَمَالِهِمْ لَمَعَتْ لِعَيْنِي فَأُورَثَنِي تَجْلِيَهَا اضْطِلَامًا
[الوافر]

في صعيد مصر، وبالتحديد في مدينة « قنا» واسطة عقد وادي النيل، ازدهرت الطريقة الخلوتية - إحدى الطرق الصوفية العرقية - على يد اثنين من كبار المشايخ، هما الشيخ أحمد الشرقاوي، وولده: أبو الوفا الشرقاوي الخلوتى.

وأفضل مدخل للشيخ أبي الوفا، هو سيرة والده وشيخه «أحمد الشرقاوي». فهذه السيرة تكشف عن طبيعة التكوين الروحي والإطار الصوفي الذي تجلّت فيه صورة الابن... يترجم الوالد لنفسه، فيقول:

«لما كان النسب الروحاني لا بد أن يكون معلوماً بين التلامذة، كما حفّقه العارفون والساسة الجهابذة. أردت أن أذكر هذا النسب الشريف، وأبيان هذا العقد المنيف. فقلتُ وأنا الفقير أحمد بن شرقاوي: أعلم أنه لم يجتمع لي العهد والتلقين، إلا على إمام زمانه... السيد أحمد الخضيري. وقد حصل لي قبل الاجتماع عليه، صورة التلقين على بعض مشايخ هذا العصر، ولكنها مختلة ليست على الكيفية المأثورة. ثم أقمت معه مدة طويلة، و كنت فيها متى ذُكر الأستاذ - أو مر في فكري - أشرقت في قلبي أنواره، وارتسمت في لوح لبّي أطواره».

ويحكي الوالد في ترجمته الذاتية، كيف كان لقاءه الأول بالشيخ أحمد الخضيري : «رأيتُ في بعض الليالي أو الأيام ، حضرته عليه الصلاة والسلام ، وقد أمرني بالإرشاد . فانتبهتْ وقد أخذني العجب ، فلاني لم يحصل لي صحيح الترقى المعلوم على أستاذ . فمكثتْ هنيئةً في حيرة ، وإذا زعيم التوجه إلى الأستاذ قد قادني ، فعرفتُ أنه - الشيخ الخضيري - أبو الروح ، وأنه منبع الترقى والفتح ، وأنه الشيخ القبلي في الحقيقة ، وهو المعول عليه عند أهل الطريقة والحقيقة . وكان معه من الإخوان ، مَنْ تدلُّ على الله عبارته . فما زلنا سائرين حتى دخلنا بلدة طهطا^(١) - أباح الله لها كل خير . فسألنا عن حضرته ، فقيل لنا : ذهبَ لصلاة الجمعة في المسجد الفلاني .. فلما دخلنا من باب ذلك المسجد ، فإذا الأستاذ جالسٌ كأنه كوكب متوفّد .. ومما حصل للقبر ، أني بعد أن أجلسني بين يديه ، ورمق فيَ بعينيه ، ثم غمضهما وشرع في الذكر بالمدّ المعلوم ، صرت كأنني أعالج غمرات الموت ، وكدت لا أجيبه من شدة هذه الغمرات وهول تلك السكريات ، ثم قوّاني الحق تعالى فأجبته - رضي الله عنه - بصوتٍ رقيق جداً لا يكاد يسمع . ومن ذلك الوقت ، فتح الأستاذ الباب ، ولم يزد طارقاً لتلك الأبواب ، وانتشرت طريقة في البلاد».

هكذا تلقى الشيخ أحمد الشرقاوي الطريق ، وتلقن الأسماء السبعة في الطريقة الخلوتية (قوى - الله - هو - حق - حي - قيوم - قهار) على يد الشيخ الخضيري ، وكان ذلك سنة ١٢٨١ هجرية .. وفي التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣١٦ هجرية ، توفي الشيخ أحمد الشرقاوي بعد حياة صوفية حافلة ،

(١) بلدة مشهورة بمحافظة سوهاج بصعيد مصر ، خرج منها أمثال الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، وغيره من أهل العلم والمفضل .

كانت دارة خلالها المأوى والملاذ للإخوان. وقد ترك من بعده ثلاثة من الأبناء، أشهرهم: أبو الوفا الشرقاوي.

* * *

ولد الشيخ أبو الوفا الشرقاوي في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ هجرية، ونشأ بقرية «دير سوادة» بقنا، واشتغل بالعلم الشرعي من صغره، وأخذ الطريق عن والده، ثم صار شيخاً للخلوتية. ووضع الشيخ أبو الوفا أول مؤلفاته («مصابح الأرواح في سلوك طريق الفتاح») وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

وعلى خلاف ما يظنه البعض من اعتزال الصوفية عن واقعهم، وما يقال عن اهتمام المتتصوفة بالخلاص الفردي؛ كان الشيخ أبو الوفا الشرقاوي مهوماً بقضية بلاده، مشغولاً بواقعها.. يظهر ذلك من مواقفه الوطنية المعارضية للاستعمار الإنجليزي، وانشغاله في صدر شبابه بالأحداث الكبرى في العالم - كالحرب العالمية الأولى - وتأييده للحركات التحريرية في مصر. وقد استضاف الشيخ أبو الوفا، الزعيم المصري «سعد زغلول» حين زار الصعيد في رحلة جهاد كانت الحكومة آنذاك لا تنظر إليها بعين الرضا، بل كانت تدبر المكائد لإفشالها؛ فإذا بالشيخ أبي الوفا يتحدى رغبة الحكومة ويقف بجوار ثورة ١٩١٩ معلنًا عن تأييده الكامل للزعيم التحرري «سعد زغلول» ومساهماً في إنجاح رحلته الوطنية إلى الصعيد.

وقد ظهر اهتمام الشيخ أبي الوفا بواقع مصر، في قصيدة همزية صريحة، تقول:

[الكامن]
أَفْمُسْلِمُونَ وَأَئْمَاءُ أَشْلَاءَ لَا مَيْتُونَ وَلَا هُمْ أَخْيَاءَ
يَهُنُّونَ وَالإِسْلَامُ أَشْرَفُ مُنْزَلًا وَمُحَمَّدًا مَا لَقُوهُ بَرَاءَ

ـ ٨٤ ـ شعراء الصوفية المجهولون

وَهُمْ عَلَيْهِ مَعْرَةٌ وَيَلَاءٌ
وَيَكُلُّ قَطْرٍ مِنْهُمْ غَوْنَاءٌ
فِي الْأَرْضِ لَمْ يَلْعُنْ بِهَا إِعْيَاءٌ
ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ ذِلَّةٌ وَشَقَاءٌ
سَقَطُوا، كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَبَائِهُ
مِنْ سَابِقِيهِمْ غَيْرَةٌ وَإِيَاءٌ
قَوْمٌ يَبْثُلُونَ فُوْسُهِمْ بِخَلَاءٌ
.. . وَيَعْدُ أَنْ يَشِيرُ الشِّيخُ إِلَى حَالِ الْمُسْلِمِينَ بِعَامَةٍ، يَخْصُّ مِصْرَ

[الكامل]

مِنْهُمْ وَهُمْ رُعِمُوا لَهَا أَبْنَاءٌ
قَدْ كَانَ خَيْرًا مِنْهُمُ الْأَغْدَاءُ
تَعْبًا وَتَرْفَعَ رَأْسُهَا الرَّؤْسَاءُ
فَلَيَهُنَّ مِصْرٌ أَوْلَىكَ الْعُقَلَاءُ
بِطَرِيقِ حَفْظِ كِيَانِهِمْ جَهَلَاءُ
بَيْنَ الْأَسْمَاءِ سِيَادَةٌ وَعَلَاءٌ
لَمْ يَقِنْ فِيْكُمْ لِلْبَلَاءِ رَجَاءٌ
فَلَنْسُومُ عَافِيَةٌ لَكُمْ وَهَنَاءٌ
هَا أَنْتُمْ بَيْعٌ بِكُمْ وَشَرَاءٌ
.. . ثُمَّ تَبْلُغُ سُخْرِيَّةَ الشِّيخِ الْمَدِيِّ، حِينَ يَتَوَجَّهُ إِلَى النَّاثِمِينَ قَائِلًا:

(١) رَمَقًا، وَهُلْ بَاقٍ بِمِصْرِ ذَمَاءٌ؟
تَشَقِّى بِهِ الْأَوْطَانُ وَالْأَرْجَاءُ

فَذَلِكُلُوا الإِسْلَامَ عَنْ وَبَاتِهِ
فِي كُلِّ دَهْرٍ سَقْطَةٌ عَرِفَتْ لَهُمْ
ذَاسْتُهُمْ أَمْسَى تَسْجِدًا إِلَى الْعَلَا
وَهُمْ إِذَا قَرَعَ الْعَصَادُ مَطْمِعٌ
أَوْ كُلُّمَا مَسْتُهُمْ يَدُ غَاصِبٍ
فَكَانُوهُمْ لَمْ يَشْرِيْ فِي أَعْرَاقِهِمْ
لَا يَظْفَرُنَّ بِمَجْدِهِمْ وَحِيَاتِهِمْ

.. . وَيَعْدُ أَنْ يَشِيرُ الشِّيخُ إِلَى حَالِ الْمُسْلِمِينَ بِعَامَةٍ، يَخْصُّ مِصْرَ

وَيَمْصَرَّ قَوْمٌ يَا لِمِصْرَ وَأَرْضَهَا
لِبْسُوا لَهَا ثُوبَ الصَّدِيقِ وَرِبِّيَا
عَبَشَتْ أَكْفُ الْطَّامِعِينَ بِهَا فَلَمْ
أَنْهَتْهُمْ عَنْ بَرِّ مِصْرَ عَقُولُهُمْ
لَا تُغْنِيَنَّ عِلْمُهُمْ شَيْئًا وَهُمْ
فَالْعِلْمُ حَقًّا عِلْمٌ مَا يُبَيِّنُ بِهِ
أُولَاءِ مِصْرَ، وَأَنْتُمْ أَنْسَاوُهَا
أَغْرِيَتُمُ الْخَطَبَ الْجَسِيمَ وَنَمَّتُمْ
أَرَأَيْتُمْ أَمَمًا تَسَاعَ وَتُشَتَّرِي
.. . ثُمَّ تَبْلُغُ سُخْرِيَّةَ الشِّيخِ الْمَدِيِّ، حِينَ يَتَوَجَّهُ إِلَى النَّاثِمِينَ قَائِلًا:

خُونُوا بِسَلَادِكُمْ وَلَا تَبْقُوا بِهَا
فِيمَثَلُكُمْ تَخْزَى الشَّعُوبُ وَمِثْلُكُمْ

(١) الذَّمَاءُ: بَقِيَّةُ الرُّوحِ وَرَمْقُهَا الْآخِرُ.

وللشيخ قصائد أخرى على شاكلة السابقة، تحكي مرارته من واقع بلاده وتهاون أهل البلاد في حقوقها عليهم، وهي مرارة لا تزال في الحلق إلى اليوم . . فمن قصائده الأخرى في هذا الأمر، أبياتٌ منها قوله:

[الطويل]

وقد أصبح الإسلام - يا مصر - أهله
معيشتهم ضئلاً وعيشهم مُرّا
وما العيشُ أن تحييا على الهون أكلاً
كما تأكل الأنعامَ تغسلَى وتتجترُ
ولكنما العيشُ الحياة على هدىٍ
إذا حاطها بالشودِ المجدُ والفخرُ

وفي مرحلة من مراحل التطور الروحي في حياة الشيخ أبي الوفا الشرقاوي ، نراه وقد تاقت نفسه للمجاورة في المدينة المنورة ، حيث يصفو الحال وترق النفس بقرب الحضرة النبوية الشريفة . فاقتني الشيخ متزلاً بإحدى ضواحي المدينة المنورة - جهة العوالى - وشد الرحال إلى هناك مع نفر من خلص أصحابه . . وهناك ، قال شرعاً في الحبيب المصطفى : [الكامل]

يُمناكَ تَهْمِي بِالْعَطَا وَالْجُود
يُسَا من إِذَا أَوْفَى بِبَابِكَ طَامِعٌ
وَسَمَا بِنَسْبَتِهِ إِلَيْكَ الْجَسُود
يَا نُورَ عَيْنِ الْكَوْنِ بِرُوكَ فِي الْوَرَى
جَيْزَتْ لِهِ الْأَمَالُ وَهِيَ شَرُودٌ
هَبَطَتْ لِسَاحِنِكَ الْمَلَائِكَ خَشْعاً
سَارِ وَنُورُكَ سَاطِعٌ مَشْهُودٌ
وَسَعَى إِلَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ بِجَمِيعِهِمْ
وَأَنْسَا حَمَالَكَ وَظِلَّكَ الْمَمْدُودُ
يَكِفُّ النَّدَى مِنْ رَاحِتِكَ عَلَيْهِمْ
وَالْكَوْنُ دُوَّتِهِمْ يَمْدُّ لَكُمْ يَدًا
وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي لِبَابِ عَطَائِكُمْ
وَلِهِمْ حَيْثُ أَرْتَهُمْ يَمْدُّ لَكُمْ يَدًا
سَعَدْتُ بِدَاهِ فِي إِنَّهِ مَرْفُودٌ
وَالْكَوْنُ دُوَّتِهِمْ يَمْدُّ لَكُمْ يَدًا
أَفْدُونَ بِبَابِكُمْ يُرَى مَرْدُودٌ
أَصْبَحْتُ أَرْتَهُمْ فِي جَوَارِكَ آمِنًا
وَحِبَّاكَ كُلَّ الْفَضْلِ وَهُوَ شَهِيدٌ
وَوَقَفْتُ أَطْمَاعِي عَلَى أَعْتَابِكُمْ
أَيْدِيكَ تُفْطِرُنِي وَأَنْتَ وَدُودٌ
وَلَنَعْمَ هذا الْمَسْوَفُ الْمَحْمُودُ

أَمْنٌ وَعِيشٌ مُخْصِبٌ وَرَغِيدٌ
 قِمْنٌ^(۱) بَأْنَ يَخْضُرُ فِيهِ الْعُودُ
 وَأَزَادُ عَنْكَ وَحْرُوضُكَ الْمُوْرُودُ^(۲)
 فَطَفَقْتُ أَبْدًا حَائِرًا وَاعْسُودُ
 وَغَدَا لَنَاعِقَ بَيْتِنَا^(۳) تَرْدِيدُ
 أَنَّ الْجَوَارَ وَإِنْ نَائِتُ يَعْوُدُ
 وَلَوْصَلَ مَا يَدِيكُمْ مَعْقُودُ
 أَبْغِي رَضَاكَ بِرَحْلَتِي وَأَزِيدُ
 نَازِلَهَا بَيْنَ الْضَّلَوعِ وَقَوْدُ
 قَلْبٌ يَمْرُّقُهُ الْهَوَى وَيَعِيدُ
 وَخَشِنَ بَطِيْبَةُ هَائِمٌ مَفْرُودُ
 وَهِيَ الْمَنْ، لَا عَالِجٌ وَزَرْوَدُ^(۴)
 وَوْجُوهُ أَيَامٍ ابْتَعَادَيْ سُودُ
 فَجَمِيعُ أَيَامِي بِقَرْبِكَ عِيدُ

وَصَفَّتْ أَوْيَقَاتِي بِطِيْبَةٍ وَهِيَ لِي
 وَأَخْضَرُ عَوْدِي فِي حَمَّاكَ وَإِنَّهُ
 أَيْرَاعٌ لِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ خَاطَرَ
 جَاهَا وَلَكِنْ بَعْضُ أَمْرِي رَأَبَنِي
 هَذَا الرَّحِيلَ بَدَا وَطِيْبَةٌ لِي هَوَى
 فَارْتَعَتْ لَوْلَا وَسْعُ فَضْلِكَ مُخْبِرِي
 مَعَ أَنِّي فِي ذَاتِ حَبَكَ رَاحِلٌ
 أَرْجُو بِهِ قُرْبِي لِدِيْكَ وَإِنِّي
 وَذَكَرْتُ لِبَعْدِي عَنْ مَعَاهِدِ طِيْبَةٍ
 قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُهُ وَكَيْفَ يَطِيقُهُ
 وَحُشَاشَةٌ يُشَرِّي الْمَدِينَةَ وَجَدُّهَا
 أَهْرَوَى مَعَاهِدَهَا وَلِي كَلَّفَ بِهَا
 تَبَيَّضُ لِي فِيهَا وَجْهُ دِيَاجْرِي
 فَلَشَنَ أَعْيَدْتُ لِي أَوْيَقَاتِي بِهَا

وقد وضع الشيخ حسنين مخلوف شرحاً على هذه القصيدة التي عرفت باسم « مدحه نبوية » فابان عن مراميها الصوفية وتعلقاتها القلبية بالحضرة النبوية .. والذى يظهر لنا من سياق القصيدة، أن الشيخ أبا الوفا الشرقاوى قد ألقها بعد عودته لمصر؛ ذلك أن مريديه وأحبابه ألحوا عليه في العودة إلى بلدته بالصعيد، لينشر العلم ويواли الإخوان بعناته، فعزز عليه فراق المدينة المنورة التي خلصت فيها أوقاته وصفت أحواله .. لكنه في النهاية آثر خير

(۱) قمن: خليق.

(۲) الإشارة إلى « حوض محمد » الذي يشرب منه الأتقياء في الآخرة.

(۳) البين: البعد.

(۴) عالج وزرود: موضعان بالحجاج.

الجماعة وضحى بلذة الذات في سبيل المجموع، فعاد لمصر ليكمل مشواره الداعي إلى الله، تاركاً قلبه بجوار الحبيب. وقد ظهرت لوعته هذه، في أبيات «المدحنة النبوية» حين أشار إلى النار التي ذكت بين الضلوع بعد فراق طيبة، كما ظهر اشتياقه في إشارته إلى تعلق حشاء بثرى المدينة.. وفي القصيدة أبيات أخرى، تعكس أثر البيئة! وتترجم انشغاله مرة أخرى بأمر المسلمين الذين عاش واقعهم بعد عودته. يقول الشيخ:

وصلَّحْ أُمِّ الدِّينِ وَالْبَدْنِيَا لَنَا
وَأَهْلَ وَدِيَ أَرْتَجِي وَأَرِيدُ
وَسَلَامَةً مِنْ شَرِّ وَقِتِّ قَدْنَمَا
وَفَكَاكُ رُوحَ أَوْئِقَتِهِ قِيسُودُ
وَالخَتْمُ بِالْحَسْنِي وَذَاكُ مُؤْمَلِي
وَبِهِ الْفَتْنَى يَوْمَ الْقِيَامِ يَسُودُ

وهذا الحال الذي مرّ بالشيخ الشرقاوي بعد عام كامل قضاه في المدينة المجاورة، يذكرنا بحال سلطان العاشقين «ابن الفارض» الذي مرّ بنفس الأمر، حينجاور بالحجاج زماناً، ثم عاد لمصر ينشد أشعار الشوق.

وقام الشيخ أبو الوفا الشرقاوي بعد ذلك برحالة إلى الهند. وفي مسجد «لاهور» عاصمة «البنجاب» رأى نعلاً منسوباً للنبي ﷺ، فقال قصيدة في هذا الموقف، تعرف باسم «القصيدة الوفائية»، وقد شرحها الشيخ حسين مخلوف مثلما شرح «المدحنة النبوية».

* * *

ولنختتم وقوتنا مع الشيخ أبي الوفا، بتلك القصيدة التي ألفها بالمدينة المنورة، وراعى فيها الأبجدية.. فبدأ كل بيت بحرف، على ترتيب حروف الهجاء. وهذه القصيدة تعد من الشعر الصوفي الخالص، فهي تصور حال المحبين، وتصف خمر العشق الأزلي، وتترجم الأحوال:

[الواقر]

وسافي الكاس دار بها مداما
فأورثني تجلّيها اصطلاما^(١)
لهم عن غيرنا عز اكتشاما
كستني حللاً الصحو احتشاما
حجاب ظلامه فصفا وهاما
كما أهوى وبلغت المراما
و كنت أذيقها قبل الحماما^(٢)
يعز سناوها عن أن يراما
وأروي صرفها من الأواباما^(٣)
له في الصدق شاؤ لا يسامى
ونسأر فؤاده تذكرو ضراما
وفي سفح العجمي ضرب الخياما
بدأت فجئت عن الحسن الظلاما
فيشتت رحيقها بدرأ تماما
على من جد في المسرى وقاما
تسادي من لرشيف الكاس راما
وهل تروي السلافة مُستهاما
إليهم جاعلاً عزمي حساما
خطور سواهم عندي حراما

أباخوا الوصل واطرحوا اللثاما
بروق جمالهم لمعث لعيسي
تبئي في مرايا القلب سير
تملت براحة التقرير لكن
جلت أسرارهم عن عين قلبي
حبوني وصلهم فسعدت حظا
خفضت جناح نفسي فاطمانت
دنوت بها إلى حضرات قدس
ذكت عرفا^(٤) وطاب لنا شذاها
رقى لرفع رتبتها همام
زمام وجوده يلقى إليهم
سرى عن جملة الأغيار طرا^(٥)
شموس وصالهم في أفق سرى
صفت في الحان أدنان الندامى
ضفت خلع الرعاية من لذتهم
طربت وأنعشته ساجعات
ظميت وقد شربت بكل كاس
على متن العناية كان سيري
غضضت عن السوى طرفي فامسى

(١) الاصطalam: نوع من الوله، قريب من الهيمان.

(٢) الحمام - بكسر الحاء - هو: الموت.

(٣) العرف: الريح الطيب.

(٤) الأواب: العطش.

(٥) طرا: جميعاً.

فيوض عطائهم تنهل دؤساً
قطوف الحضرة العلياء تدنو
كسته ثياب إجلالٍ وعمرٌ
لَوْي عن نشأته عنان روحٍ
مُذَامُ الوصل ريحانٍ وروحٍ
نداوهم هُدِيت به وكانت
هوائف حضرة المحبوب تدعوه
ولاء قلوبهم يرقى إليه
لالي فضلهم نظمت عقرداً
يسروم متيم الأحشاء منكم

* * *

بخصوص ترجمة الشيخ وأشعاره.. انظر:

شرح (مدح نبوة - القصيدة الوفائية) للشيخ حسين مخلوف،
صفحات ناصعة من تاريخ الإمامين، شمس التحقيق وعروة أهل التوفيق،
أوراد السادة الخلوتية.

إبراهيم حلمي القادري

(المتوفى ١٣٩٠ هجرية)

دَهَانِيُ الْعَذْلُ فِيكُمْ بِالدُّوَاهِيِّ وَشَكُوَى الْخُبُّ مِنْ فَرْضِ الْهَبَامِ
[الوافر]

منذ قرابة عشرين سنة، وبالتحديد ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ١٣٩٠ هجرية، وقف الشيخ إبراهيم حلمي القادري يصلّي بمربيديه صلاة التراويح.. وأطال الشيخ السجود، ومرّ الوقت في خشوع رهيب. الكل ساجد، الوقت يمر، الشيخ على حاله.. تقدوه، فإذا هو بجوار ربه.

ولد الشيخ إبراهيم حلمي بالإسكندرية في ١٦ محرم سنة ١٣٢٢ هجرية، وتلقى أصول التصوف على يد والده محمد حلمي (المتوفى ١٣٥٥ هجرية) وصار شيخاً للطريقة القادرية النيازية، التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبد القادر الجيلاني - عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت من جامع القادرية بالإسكندرية مقراً لها.

ولا تزال الطريقة القادرية النيازية قائمة إلى اليوم، على نفس النحو الذي نظمه الشيخ في حياته.. ولا يزال تصوفهم كتصوفه، يغلب عليه الطابع العلمي الرصين، بعيد عن كل مظاهر التخلف التي نجدها في العديد من الطرق الصوفية المعاصرة في مصر وغيرها من البلدان.. ولن نتوقف هنا عند طبيعة تصوف القادرية النيازية، فقد أفردنا لذلك الفصل الأخير من بحثنا المنشور (الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر) وهو البحث الذي كان أحد

جزئي رسالتنا لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة الصوفية. لهذا سنكتفي هنا بالتوقف عند شخصية الشيخ إبراهيم حلمي، ونتعرف على شيء من شعره الصوفي.

جمعت شخصية الشيخ بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي الشاعر. ففي الفقه وفروعه، كان الشيخ على قدمٍ راسخة في شئ المذاهب، وهو في ما يظهر في ثنايا مؤلفاته التي سنذكرها في خاتمة تطوافنا معه.. وقد خصّص الشيخ للفقه يوماً من أيام الأسبوع، تقوم فيه الطريقة بدراسة واحدة من كتب المتون الفقهية. وذلك بأن يقرأ أحد المربيدين فقرة من الكتاب، ثم يقوم الشيخ بالشرح والتعليق واستعراض تلك المسائل الفقهية المتصلة بهذه الفقرة. ولا يزال هذا النظام متبعاً عند أتباعه إلى اليوم.. وهو نظام يذكرنا بما كان يُسمى في العصور الظاهرة للحضارة الإسلامية باسم مجالس التعليم. حيث انتشرت هذه المجالس في ربوع البلاد، وفي مختلف فروع المعرفة، مما جعل التواصل العلمي مستمراً عبر حلقات طويلة من الدرس القائم على العلاقة المباشرة بين الأستاذ والطلاب.

وكان الشيخ مربياً إسلامياً لمجموعة كبيرة من المربيدين، كان يتبع معهم أصول التربية الإسلامية النقية من المفاهيم المغلوطة التي دسّتها على برامجنا التربوية (فلسفات الغرب) التي لا تتفق مع طبيعة التكوين الثقافي والموروث الديني لدينا.. ولكن المقام هنا لا يتسع لعرض المنهج التربوي عند الشيخ، ولتحليل تلك المواقف التربوية التي يذكرها مربيدوه. وذلك لأن ما يهمنا هنا، هو التعرف على الشيخ كشاعر صوفي.

لم يكن الشعر عند الشيخ مطلوباً لذاته، وإنما كان أداة تعبيرية تناسب الموضوعات الصوفية التي أراد التحدث فيها. وقد عبر الشيخ عن هذا المعنى في قطعة شعرية له، منها قوله:

[الرمل]

لست بالشعر ولبعاً إنما هزني الوجدان والدمع أصماً^(١)

وقد هزَ الوجدان قلب الشيخ، فكتب مجموعة كبيرة من القصائد التي تعد أبياتها بالآلاف ولم يشغل الشعر عنده بموضوعات التصوف فقط، بل كانت له إطلالات شعرية على العديد من القضايا التي شغلت مصر وما تزال تشغله. فمن ذلك قصيده (الجهاد) التي يقول في بعض أبياتها: [الرمل]

طُولَ لَيْلِي مِنْ ضِرَامٍ وَجَلْ	هَزَّتِ الْوَجْدَانُ قَلْبِي فَابْتَهَلْ
دَمْعُ عَيْنِي وَهَمْوُ لَمْ تَرَلْ	وَعِسْوَنِي يَا عِيسَوْنِي ضَرَّهَا
وَمَنَاطُ الْفَوْزِ بِالْحُسْنِي الْعَمَلْ	قَلْ فِينَا مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ
فَعَدُوا اللَّهَ لِفَتْكَ اَشْتَدَّ	يَا شَبَابَ النَّيْلِ فَاحْمِلُوا عَرْضَكُمْ
لَا يَطِيقُ الدُّلُّ إِلَّا مَنْ سَفَلْ	حَرَضُوا لِلْحَرْبِ وَاحْيَا عَهْدَنَا
فَاهْتَمَّ الْمَرءُ يَسْمُو مَا بَذَّلْ	وَابْذَلُوا الْأَرْوَاحَ فِي حُبِّ الْوَطَنِ

ويعلق الشيخ على البيت الأخير في هامش النص المطبوع من القصيدة، فيقول: «قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو لا حب الوطن لخرب بلد السوء. وكان يُقال: بحب الأوطان عمرت البلدان. وقال جالينوس: يتزوج العليل بنسيم أرضه كما تتزوج الأرض الجدبة بسائل المطر. وقال أبقراط: يُداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تنزع إلى غدائها. وقيل: احفظ أرضاً أرسنخ رضاعها وأصلحك غذاؤها وارع حمى اكتنفك فناؤه. وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى أوطانها مشتاقة وإلى مولدها تواق». . والبيت الشعري والتعليق، يشيران الانتباه إلى ما تدعوه إليه

(١) أصماً: اشتد.. ويُقال: أصماً النبات، إذا افت.

الطوائف والجماعات الإسلامية المخدوعة، التي تؤكد أن (حب مصر) يتعارض مع المفهوم الإسلامي الذي لا يعترف بالإقليميات! وبهما كانت الدوافع وراء تلك الدعوة - سواء بقصد أو دون قصد - فإنها لا تؤدي إلا لطمس معالم الشخصية المصرية لصالح غير المصريين.. عموماً، فهذه ليست قضيتنا هنا، فلنعد إلى ما نحن بصدده، ولنقرأ هذه الآيات المتحسّرة من إحدى قصائد الشيخ حيث يقول:

وعهدًا قد تقضى في وئامٍ
ودمعي لانصرام العهيد دامٍ
ولكن أين أعطار الأنامِ
ولكن لا أرى غير النعامِ
وعتبى للذئبِ من الحرامِ
وغاية أهلها جمُّ العظامِ
سوى التمهيد للعللِ الجسامِ
واعلامُ توارى في الرَّغَامِ^(١)
وحقَّ يكاه طلابُ السلامِ
فِرِقُوا جيزةَ الْبَيْتِ الحرامِ
يُعَدُ العين عنكم الفُّ عامِ
على الاعتراض موفورِ الجمامِ
واحظى بالسلام من السلامِ

فَما نبَكْ جهابذَةَ الأنامِ
أيُخْفِي ما أَضَرَّ من الغرامِ
خِيَامٌ قد أَرَاهَا كَالْخِيَامِ
وَطَرْفَيَ قد يُسَارِعُ بِالْتَفَاتِ
وَصَمْتَيَ عن عتابِ الْحَرُّ جَرْمَ
ولكنَّ أين ذاكَ الْحَرُّ يَلْوِي
وَإِنْ غَفَّ الخَيْسُ فَلَيْسَ يَرْجُو
وَتَنْتَصِرُ الْمَهَازِلُ كُلَّ يَوْمٍ
غَرِيبُ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ يَبْكِي
وَفَاضَ الْوَجْدُ وَالْتَهِيمُ عَنِّي
وَاضْنَانِي الْبَعَادُ وَإِنْ يَوْمًا
مَتَّ الْأَطْعَانُ تَسْعَفْنِي وَأَمْسِي
وَأَشْكُو لِلْحَبِيبِ شَيْتَ حَالِي

.. أما القصائد الصوفية الخالصة، فقد ترددت طويلاً في اختيار واحدة منها لتقديمها هنا. ثم وجدت نفسي تميل كثيراً لهذه القصيدة التي طالما

(١) الرَّغَام: التراب.

قرأتها في مقام الشيخ، حيث كُتبت أبياتها بخط جميل على جدران المقام.
[الكامل]

ولئن بدا للغیر فهو تمثّل
والعبد يكرم بالزلاه الارفع
تسمو على فلك الوجود الشّرع
ولها علوت وكان أمر شطّاعي
زفراً قلبی واصطلام الھلّع
خیر الخلائق بالدعاء الاجماع
أهل الھوى والساجدین الطّرع
وخلوت بالبيت المَشید ولا داعی
وبه انتشارات وكان أمنٌ تضعي (۱)
عيناً وقلباً واصطبعت مسامعي (۲)
ونظمت أروع ما يكون وما معی (۳)
حاشاه يسجد أو يقوم لمُمتع
ولدي من عهد الغرام اللّمع
سطعت بنار الوجد شمسٌ تولعی
سجدت ولو كان النهار برابع
وانتسابني قلقٌ وزاد تفجّعی
يا ساكنِ الدمع كلّت مَذْمِعی
نازٌ ولكن من حشایا المُوجع

يا سیدی أنت الغیاث ومقزّعی
لکم الولا ودخلکم يشکو الضنا
وبکم عُرفت ولی لدیکم حُجّة
والشّمس تعلم أنّی معهودکم
وبها فسال الدمع منی تمدّه
وبها فارجت العطور بیئها
منها على العالین كنت مناجیا
وعلى المعارج سیدی أرقیتني
أقرأتني قدماً کریم خطاکم
بالنور أشرقت الحروف وكنت لي
وسقیتني کأساً فهمت مناجیا
غذیتم روحي وإن فطیمکم
فأنا الحسیب وحسن ظنّی غالب
مالو أبغی لللیل بعض رموزها
وعلى المُنیرة لو تلوت حروفها
لکنه وهنْ عظامی سیدی
کلّی لكم منکم بکم في عزّکم
بین الجوانح والقواعد تسررت

(۱) الإشارة إلى خطاب الله للأرواح قبل خلق الأجساد.

(۲) الإشارة إلى الحديث القدسي: ما زال عبدی يتقارب إلى بالتوافق حتى أحبه، فإن أحبته كنت عينه التي يرى بها.. الخ (حديث مشهور).

(۳) الإشارة إلى أنه لم يكن معه من صناعة الشعر شيءٌ قبل ذلك.

بالبيت أخشى يا غياث الفزع
 والرفق من دأب الكرام الشفيع
 وسواء كمو أبداً فليس بنافع
 والصبر بعد بهاته لم يلمع
 إلا الذي من سرور لم يمنع
 وبها فقد طاب الشراب ومرتعني
 تأبى الرفيع يهُرِجْ ويسارق
 والوهم يخدع بالسراب وبلague
 فيين ما ألقت نفوس الطماع
 ضماء عن لحن الشجي وسجع
 كالنماز عات الناشطات المهزع
 عزل العواذل لا يزال مقطعني
 ويغزو حلمي ^(٥) رغم أنف المدعى
 ولغيركم قلبي وسمعي لم يبع
 وعطاؤكم مهما يكن لم أقنع
 قلبي الوفاة الجلسي والتّبع ^(١)
 يا من بهم أبقى ويفنى مُرْؤَعِي

بعد الرُّقي على الطُّباق وطوفتي
 رفقاً بصلب ^(١) قد أناخ ببابكم
 من للعواذل سيد في محظي
 عذلٌ وتبريخ وآلة موجع
 من للنزيل إذا شكا من عصبة
 ألف الدخيل مكارماً من عطفكم
 والغير ^(٢) إن مررت على فخاطري
 صور وأشكال ومتعة ناظر
 ليت الغطاء عن العيون تكشفت
 زرع بلا ثمرٍ وطير صامت
 وعوازل الأحرار خلف زيفها ^(٣)
 يا دولة العزّ الهني السرمدي
 فمتى أجرد سيف عزمي ^(٤) فاتك
 سحر الفؤاد بطريقكم وجمالكم
 ما زلت أهتف والهيا ملازمي
 لن أنتهي حتى يكون لوصلكم
 فلقد سلوت ولست يوماً سالباً

(١) الصب: العاشق شديد العشق.

(٢) الغير: كل ما سوى الله.

(٣) زيف: جمع زيف.

(٤) عزمي: كان الشيخ يُعرف في شبابه بلقب (إبراهيم عزمي).

(٥) حلمي: قد تكون من (الحلم) وقد تكون إشارة لاسم (إبراهيم حلمي) ففي هذه اللحظة وسابقتها، جناس تام.

(٦) يشير البيت إلى ما يُعرف في التصوف بعنابة الشيخ بمردينه، وارتفاع المریدين ببركة شيخهم في حياته، وبعد وفاته أيضاً.

والغرف يقضي بالعطاء الأوسع
وعليكمو حبس الرجاء تمني
أما الوعود فاجزئ ويانفع
يا من بهم حسنت عوائد مرجعي
ماذا جرى لعهودكم وتضرعي
ويكم على الأبواب رن توقيعي
منكم يسابق كالسحب السرع
خضب المشيب نواحه بالأيدع^(١)
فأراه يأتي بالنوار الأمتع
تذكرو كما يذكرو السجدة لرُكع
زمرة الملائكة والطيور السُّجع

جئت الرحاب ونجدتني بولائمكم
عاً إذا ما الغير يُدي منه
خُلُف الوعيد فشأنكم يا سادتي
والعود يُحمد باللقاء ووصله
يا آل يشرب يا كرام عشيرتي
فيكم إلى المولى العزيز توسل
بكم التوسل في الشدائـ والنـدى
رُفـوا الأمان إلى الكثـيف فإنهـ
قويـ الرجـاءـ بـكمـ وإنـ بـعدـ المـدىـ
مـنـاـ عـلـىـ حـرـمـ الحـبـبـ تحـبـةـ
وـمـسـلـمـاـ بـرـقـيـةـ تـحدـوـ بـهاـ

* * *

بالإضافة إلى الفصل الأخير من كتابنا (الطريق الصوفي ..) يمكن
الرجوع بقصد الشيخ إبراهيم حلمي القادري وتصوفه، إلى مؤلفاته الآتية:
مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة (مطبوع بالإسكندرية)
القرب في محبة العرب للعربي، تحقيق (مطبوع) تكذيب المدعى بصحة
رحلة الإمام الشافعي (مطبوع) الجهاد ومعاهد البر، قصیدتان (مطبوع) شرح
تعليم المتعلم للزر توجي (مخطوط بمكتبة مسجد القادرية النيازية) جلال
الحق في كشف أحوال شرار المخلق (مخطوط) محـوـ الشـبـهـاتـ فيـ ثـبـوتـ المـحـوـ
وـالـإـثـبـاتـ (مـخطـوطـ) السـيـرـ وـالـسـلـوكـ (مـخطـوطـ) العـدـوىـ وـالـسوـبـاءـ (مـخطـوطـ)
الـرسـائـلـ الصـغـرـىـ (مـخطـوطـ) المنـظـومةـ القـادـرـيةـ، مـجمـوعـةـ أـشـعـارـ ..

(١) الأيدع: نوع من الصبغة البيضاء، يستخدمه أهل البن.

خاتمة

كانت لنا عبر صفحات هذا الكتاب، رحلة في عالم الشعر الصوفي المجهول. ولعلها تكون صحبة طيبة، تلك التي تعرفنا فيها على حياة وشعر الشخصيات العشرة التي قدمها الكتاب، في محاولة لتضييق مساحة الإهمال الذي لقيه شعر الصوفية.. ذلك الشعر الذي قد نختلف حول قيمته الأدبية، لكننا نستشعر دوماً صدقه وحرارة عاطفته. فإذا كان البعض يقول (أجمل الشعر أكذبه) فإننا نقول (أطيب الكلام أصدقه) ولقد كان شعر الصوفية طيباً، لأنه كان ترجمة صادقة لأحوالِ معاشرة بالفعل. فلم يقله أصحابه تزويراً للغة، أو تكبساً لمالٍ، أو لنيل شهرة؛ وإنما غالب عليهم سكر المحبة فتغُنوا، واستبدُّ بهم الوجد فأنشدوا.

ولنا في خاتمة الرحلة وقفات، نتأمل فيها بعض النقاط التي طرحتها هذه الرحلة الذوقية.. فمن ذلك:

الوقفة الأولى:

(حول بدء الشعر الصوفي ومساره):

الملاحظ أن ظهور الشعر الصوفي في محيط الأدب العربي ، كان معاصرًا لظهور التصوف ذاته. فقد بدأ أوائل الصوفية حكاية مواجهتهم شرعاً،

وكانهم وجدوا الشعر - منذ اللحظة الأولى - أكثر مناسبة لبث حرّ الوجود.. ولهذا يندر أن نجد صوفياً من الرواد، لم يقل الشعر.

ومع أن البعض يرجع بأصول التصوف إلى أيام الصحابة، بل إلى أيام النبوة؛ ويستدلّون على ذلك بأحوال الرسول ﷺ، وبأخلاق رجال الصدر الأول للإسلام. إلا أن الأكثر شيوعاً بين الباحثين، هو أن البدايات الحقيقة للتتصوف كنمط متفردٍ من التقرب إلى الله، كانت إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهذا القرنان اللذان ظهر فيها الشعر الصوفي ، في شكل أبيات متتالية منسوبة لهذا الصوفي أو ذاك.. وعلى هذا، فإن بدء الشعر الصوفي، هو بدء التتصوف.

ثم تدفق تيار التتصوف، متوازياً مع تيار الشعر. حتى إذا جاء القرن الهجري السادس؛ فإذا بالشعر دعامة أساسية للتغيير الصوفي ، وإذا بصوفية لم يخلفوا إلا الأشعار - كابن الفارض وغيره - وإذا بالقصائد المطولة التي تعدُّ أبياتها بالمئات، وإذا بكل المؤلفات الصوفية مملوءة بالشعر.

وعلى هذا النحو، اتسع مجال الشعر الصوفي عند أهل الطريق، واتخذ في الآثار الصوفية مساراً متميّزاً، ظل حتى اليوم متواجداً بقوة عند المعاصرين من الصوفية.. أولئك الذين اتخذنا الشيخ إبراهيم حلمي القادرى مثالاً عليهم.

ونخلص من هذه النقطة إلى القول بالتلازم التام بين التجربة الصوفية وترجمتها الشعرية ، بحيث لا ينفصل الشعر عن التتصوف.

الوقفة الشاذية:

(حول تطور أغراض الشعر الصوفي):

إذا نظرنا إلى أشعار سمنون المحب والروذباري، على أنهما يمثلان الشعر الصوفي في طوره المبكر، لوجدنا أغراض الشعر الصوفي وكأنها تحصر في التعبير عن (المحبة) بمفهومها الصوفي، فلا تتعذر ذلك إلى أغراض أخرى.

ومع ذلك، فالمحبة عند الصوفية لا يجوز النظر إليها على أنها غرضٌ واحدٌ فحسب. فهي في التصوف تتسع، حتى تشمل العديد من الموضوعات المتعلقة بها، على نحو ما نرى في شعر سمنون من علاقة المحبة بالشوق.. والشوق عند الصوفية حالٌ رفيعٌ يعبرون به عن حسرة النفس الإنسانية لبقائهما في سجن البدن، ومن ثم تشناق إلى عالمها الرباني الأسى الذي تتوه إليه، لتنعم بقرب المحبوب (الله).

كما نجد علاقةً بين المحبة والابتلاء.. فها هو سمنون يدعو في بعض أبياته، إلى المزيد من الابتلاءات (ضاعفت على بجهدك البلوى) والبلاء في المحبة الصوفية أمرٌ مطلوبٌ فيه ترتفع الدرجات ويقترب الصوفي من مقامات أهل الكمال؛ كما ورد في الحديث الشريف: «أشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثال». وبالابتلاء تخلص نفس المحب من الشواغل، فلا تلتفت إلا للمحبوب، الذي قد يبالغ في البلاء حتى يصل لحد القطع؛ كما ورد في الحديث: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب الجم قطعة، فلم يبق له مال ولا ولد» وبالابتلاء يكون امتحان المحب، ولا شيء لدى المحبين أ hely من امتحانات الحبيب! فيها يؤكدون محبتهم؛ ومن هنا قال سمنون:

شعراء الصوفية المجهولون - م^٩

فإذا بلغت الجهد فيَ فلم تترك لنفسك غايةَ قصوى
فانظر، فهل حالٌ بيَ انتقلت عما تُحبُّ بحالةٍ أخرى؟

كما نجد علاقة المحبة بالصدق، والصبر، والوصل، والرضا.. وكلها من أحوال الصوفية ومقاماتهم التي سرتاها بعد ذلك مبسوطةً ومشروحةً بإسهابٍ في المؤلفات الصوفية التي عرضت لمراحل الطريق الصوفي ، مثل: قوت القلوب في معاملة المحبوب للمكي ، اللمع في التصوف للسراج الطوسي ، إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ، وغير ذلك .

هذا في شعر سمنون؛ وبالإضافة إليه، نجد في شعر الروذباري علاقة المحبة بالبكاء.. فها هو يشير في بعض أبياته، إلى أن روحه بكث (حتى يُقال من البكاء تقطعت) وللبكاء عند الصوفية مفهوم ذوقٍ شديد الشخصوصية، فهم يستندون للحديث: «ابكوا، فإن لم تبكوا، فتباكوا» ليجعلوا من البكاء علامَةً عن اشتداد غمة روح المحب في الدنيا، تلك الدنيا التي ورد في الحديث أنها: سجن المؤمن وجنة الكافر. ولهذا امتلأت كتب تاريخ التصوف بالحكايات الدالة على فرط بكاء المحبين، بل إن هذه الكتب تحدثنا عن طائفة من أوائل الصوفية بالشام ، كانوا يعرفون باسم البكائيين .

وفي شعر الروذباري أيضاً، نجد علاقة المحبة بالفناء.. فهو لا يعترف في شعره بمحبة (منْ لم يكن بك فانياً عن حبه) ولهذا الفنان الذي يشير إليه الروذباري معنى دقيق. وذلك أن شرط المحبة الصوفية، فناء المُحَبُّ عن كل تعلق قلبي بأمور الوجود، كي لا يستغل القلب بحب الموجودات، فيشغل عن حبٍ واجد الموجودات. هذا عن المحبة والفناء كما عبر عنهما الروذباري ، أما في مرحلة تالية عليه، فسوف يشير الصوفية إلى معنى أكثر دقة ورهافة في العلاقة بين المحبة والفناء، فنراهم يقولون بوجوب فناء المحب، حتى عن محبته لله! وذلك حين يصل بالفناء لدرجةٍ، يفني فيها عن نفسه وعن

محبته، بحيث لا يقى إلا المحبوب المُدْهِش للعقل بأنوار تجلياته المتواترة. فعند هذه الدهشة، يفني المحب عن كل ما سوى المحبوب.

كما نجد في أبيات الروذباري علاقة المحبة بالعديد من الأحوال والمقامات الأخرى.. فنراه في بيت يصل المحبة بالوجود، وفي بيت آخر يصلها بالشكرا، وهكذا.

يتضح مما سبق أن (المحبة الصوفية) بعلاقاتها المختلفة، كانت الغرض الأول الذي دارت حوله أفلالك الشعر الصوفي في مرحلته المبكرة.. فماذا عن المرحلة الوسطى، التي امتدت من القرن السادس وحتى التاسع الهجري؟

في هذه المرحلة، تنوعت أغراض الشعر الصوفي تنوعاً لا حد له. ويرجع ذلك في المقام الأول؛ إلى ثراء التجربة الصوفية، واتساع رقعة المعرفة الذوقية، وارتباط التصوف بالفلسفة وعلوم أخرى.. فكان أن نفتحت آفاق جديدة للتصوف، فجاء الشعر ليعبّر عنها.

ولما كانت المعرفة الصوفية قد استقلت في هذه المرحلة، وتميزت بطابع خاص؛ فقد ظهر الرمز الصوفي بشكل بارز في أشعار القوم. وقد مررت بنا خلال أشعار ابن خليفة والشستري وابن إسرائيل وابن الخيمي، تلك الرموز الصوفية المعبر عنها بالخمر وسلمى وليلي ونجد والدير والرهبان.. كما مررت بنا (ذوات الخلود الشبيهة بالشقائق) اللاتي رمز بهن نجم الدين كبرى لتجليات النور الإلهي.

ومن العسير علينا هنا، أن نعدّ أغراض الشعر الصوفي في المرحلة التي امتدت من القرن السادس إلى التاسع الهجري؛ فالمقام يضيق عن ذلك. لذا، سوف نشير إلى هذه الأغراض العديدة إجمالاً، فنقول: إنه إلى

جانب المحبة، تناول الشعر الصوفي موضوعات: حقيقة الوجود - فيض التجليات الإلهية على قلب الصوفي - التوحيد الشهودي - ميشاق الله مع الأرواح قبل خلق الأجساد (عالم اللَّرُّ) - المقابلة بين الظاهر والباطن - أطوار المشاهدة - الوحدة..

وبعد القرن العاشر الهجري، نضبت المعرفة الصوفية وتجمدت عند تراث السابقين، فبقي الشعر الصوفي في مرحلته المتأخرة، ينسج على أغراض المرحلة السابقة، دون ولو جُ لافق جديدة.. وكادت لغته المتفجرة تهدأ، وأشجاره الوارفة تصفرُ وتساقط أوراقها. وعلى الحقيقة؛ فليس ذلك بالغريب، فمنذ القرن العاشر وحتى اليوم، وكل ما في هذه الأمة يهدأ، ويصفرُ، وتسقط أوراقه.

الوقفة الثالثة:

(حول الشعر الصوفي الفارسي):

لم يقف التصوف في الإسلام عند حدود اللغة، بل حلقت التجربة الصوفية في آفاق العالم الإسلامي كله؛ ومن ثم لم يقتصر تصويرها الشعري على اللغة العربية، وإنما حفلت الفارسية والتركية بروائع من الشعر الصوفي، لا يقل في روعته وبهائه عما كُتب بالعربية.

ولقد تعمَّدت في رحلتنا هذه، أن نحطُ الرحال حيناً عند نجم الدين كُبرى، كي يشتمل الكتاب على واحدٍ من شعراء الصوفية الفرس، المجهولين أيضاً كالعرب. وقد اتضحت للشعر الصوفي الفارسي مذاقٌ خاص، واكتسح في مجمله بطابع قد يميِّزه عن شعر الصوفية العرب. فلول ما يبدو من ذلك، هذا اللون من المخكمة الرائقة التي تغلُّف الرباعية الأولى التي قدمناها من شعر نجم الدين، حيث يحكى عن الحكم في حال عزلهم وفي حال سلطتهم.

وهو ما نراه أيضاً في رباعيته الثانية التي أشار فيها لسلطان المال على نفوس بني البشر.

كما تميز الشعر الصوفي الفارسي بغلبة طابع القصّ الشعري، ومع أن ذلك لم يتضح في النماذج القليلة التي قدمناها من شعر نجم الدين، إلا أنه واضح كل الوضوح في الآثار الشعرية لصوفية الفرس الكبار، من أمثال فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي. وهذا القصّ الشعري لا يناسبه كثيراً عند الصوفية العرب، فقد تشمل بعض قصائدهم على لقطات حوارية أو ترافق موجزة، لكنها في الغالب لا تحكي تلك الحكايات الطويلة التي نجدتها في المثنوي ومنطق الطير وغيرهما.

ثم يشتراك الشعر الصوفي الفارسي، مع نظيره العربي، في خصائص عديدة. فكلاهما يتاجج بالمحبة، ويتحرق بالعشق؛ وكلاهما يمتلك صدقًا ويفيض عدوة؛ وكلاهما يستخدم الرمز.. وإن كانت رموز الفرس من لونٍ خاصٍ فها هو نجم الدين كبرى يستخدم رموز: حسنوات شَجَلْ - حبة الشعير - شمر ويزيد.. الخ، وهي رموز لم يستخدمها شعراء الصوفية العرب. بل إن أشهر الرموز الشعرية في مثنوي جلال الدين الرومي (الناي) لا نجد له ذكرًا في الأشعار العربية. وعلى أي الأحوال، فما دام المرمز إليه واحداً، فلكل قومٍ أن يختاروا ما يرمزون به.

ولما كنا في معرض الكلام عن الشعر الصوفي الفارسي، فلا بد من التعريف بأهم نصٍ فيه.. بل أهم نصٍ في الشعر الصوفي على الإطلاق، فارسيًا كان أو غير فارسي، ذلك هو: المثنوي.

ترك جلال الدين الرومي، المتوفى ٦٧٢ هجرية، تراثاً شعرياً يقدر بنحو سبعين ألف بيت. منها ديوانه (المثنوي) الذي يقع في ستة مجلدات، تضمُ

قرابة خمسة وعشرين ألف بيت، مع مقدمة قصيرة كتبها جلال الدين باللغة العربية! منها قوله: هذا كتاب المثنوي، وهو أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر.. الخ.

ويبدو المثنوي كما لو كان بحراً زاخراً بالمعاني والإشارات والحكايات الرمزية. ولا أعرف السر في أنه يذكرني دوماً بالفتוחات المكية لابن عربي؟ ربما لأن كلديهما هائل الحجم عميق الأثر، أو لأنهما يبحران في أقصى محيطات المعرفة والذوق، أو لأنهما من تلك الأعمال التي لا تتكرر.. عموماً، فثمة رابطة ما بينهما.

وكان الدكتور محمد عبد السلام كفافي قد قام بترجمة مجلدين من المثنوي إلى العربية، ثم بقيت الأربعية الباقيه بوفاته دون ترجمة؛ مما حجب عن المكتبة العربية أثراً من أهم آثار الأدب العالمي. لكنني علمت مؤخراً أن الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا، يقوم الآن بترجمة بقية السديوان.. وإننا نتوق إلى رؤية هذا العمل الشعري، في ترجمة كاملة إلى العربية، فهو يتبع إطلاعة لا مثيل لها على تراث الفرس، الصوفي والأدبي في آنٍ واحد.

الوقفة الرابعة:

(الشعر الصوفي في الدراسات المعاصرة):

سبق لنا الإشارة - في عدة مناسبات - إلى أن الشعر الصوفي، لم ينزل بعد ما هو جدير به من اهتمام الدارسين، سواء في ميدان الدراسات الصوفية، أو في حقل البحوث اللغوية. وذلك على الرغم من أهميته في كلام التخصصين، ومكانته التي لا يمكن التجاوز عنها في كلديهما.

ولا تزيد الدراسات الجادة في مجال الشعر الصوفي، فيما أعلم، عن عدد أصابع اليد الواحدة. وعند مطالعتنا لهذه الدراسات، تتضح سمة معينة

فيها، تكاد تكون الغالبة.. وهي أن الدراسات المعاصرة قد صرفت عن اهتمامها لبحث الشعر الصوفي في طوره المبكر، فسراحت تحمل أشعار الأوائل من أمثل: رابعة العدوية - ذو النون المصري - الحلاج - الشibli.. وغيرهم من الصوفية الذين عاشوا قبل القرن الخامس الهجري.

واستناداً إلى ما ذكرناه من أن الشعر الصوفي في طوره المبكر، لم يكن متتنوع الأغراض على نحو يستوعب الأفكار الصوفية في مراحل تطورها المختلفة. فإن العكوف على شعر الطور الأول، لن يفي بفهم جوانب التجربة الصوفية الشريعة، التي عاشها صوفية القرن الثامن الهجري مثلاً.. فهو لاء الصوفية لا توجد عندهم إلى اليوم، دراسة واحدة تتناول شعرهم بالبحث والتحليل؛ مع أن القرن الثامن، حفل بهم لا حصر لهم من الصوفية الذين تركوا تراثاً شعرياً ضخماً.

وأصحاب الدرس اللغوي، والباحث التصوفي، يتعللون في عدم إقبالهم على الشعر الصوفي بأمررين: الأول، أن هذا الشعر مملوء بالرموز والكتنائيات، بحيث يصعب على الباحث استكمانه مقصده ومراده الحقيقي. والأمر الآخر، أن معظم هذا الشعر لا يزال بعد مخطوطاً، ولم ينشر منه إلا القليل.

وعلى طريق تذليل هذه الصعوبات الحائلة دون الاهتمام بالشعر الصوفي، نشير فيما يخصُّ الأمر الأول، إلى أن هناك قدرًا كبيرًا من المؤلفات التي تشرح غواصات المصطلح الصوفي وتحدد مدلولاته. فمن ذلك: التعريف لمذهب أهل التصوف - الرسالة القشيرة - عوارف المعارف - اصطلاح الصوفية لأبن عربي - اصطلاحات الصوفية للقاشاني .. وغير ذلك الكثير. وبذلك، فإن فضَّ غلالة الرمزية الصوفية، عملٌ ليس باليسير، خصوصاً إذا تم العكوف على المصطلح وتنزقه من قبل الدارس.

وفيما يخص الأمر الآخر، أعني بقاء معظم الشعر الصوفي مخطوطاً. فقد أشغلت نفسي بتذليل هذه الصعوبة، لينفسح طريق البحث في الشعر الصوفي؛ فقمت بتحقيق قدر من الشعر الصوفي، ولا زلت أعمل في تحقيق قدر آخر. فكان مما انتهيت من تحقيقه: قصيدة النادرات العينية (٥٣٩ بيتاً) مع شرح النابلي - ديوان عبد القادر الجيلاني - ديوان عفيف الدين التلمساني (جزءان) . . وأعمل اليوم على تحقيق ديوان عبد الكريم الجيلي كاملاً، ومن بعده ديوان عبد الهادي السُّودي اليمني الذي قدمنا منه بعض الفقرات الشعرية بهذا الكتاب الذي بين أيدينا.

ولائي أرجو أن يسهم ذلك، في الاهتمام بالتراث الشعري الصوفي، وفي وضع مادة البحث فيه أمام الباحثين، وفي مزيد من التعرُّف العام على هذا اللون من الأدب العربي المجهول.

والله الموفق.

المصادر والمراجع

- ١ - إبراهيم حلمي القادري: مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة (نشرة عادل البهـي - الإسكندرية ١٣٨١ هجرية).
- ٢ - إبراهيم حلمي القادري: تكذيب المدعى بصحبة رحلة الإمام الشافعـي (نشرة عادل البهـي - الإسكندرية، بدون تاريخ).
- ٣ - إبراهيم حلمي القادري: قصيدة الجهاد (مطبعة الكوثر - الإسكندرية، بدون تاريخ).
- ٤ - إبراهيم حلمي القادري: شرح تعليم المتعلم للزرنوجـي (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية - الإسكندرية).
- ٥ - إبراهيم حلمي القادري: جلال الحق في معرفة أحوال شرار الخلق (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية).
- ٦ - إبراهيم حلمي القادري: المنظومة القادرية المباركة (مخطوط بمكتبة القادرية النيازية).
- ٧ - ابن أبي زرع: روض القرطاس (طبعـة فاس - المغرب).
- ٨ - ابن أبي أصيـعـة: عيون الأنـبـاء في طبقـات الأطـباء، تحقيق: نزار رضا (منشورات مكتبة الحياة - بيـرـوت).
- ٩ - ابن إياـس: بدائع الزهـور في وقائع الدـهـور (طبعـة بولاق ١٨٩٤ م).

- ١٠ - ابن الجوزي (أبو الفرج): صفة الصفو (طبعة القاهرة - بدون تاريخ).
- ١١ - ابن الجوزي (أبو الفرج): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (طبعة حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٥٨ هجرية).
- ١٢ - ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (طبعة حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٣٥٠ هجرية).
- ١٣ - ابن خلkan: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (طبعة القاهرة ١٢٧٥ هجرية).
- ١٤ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (دار الكتب المصرية - القاهرة ١٣٥٧ هجرية).
- ١٥ - ابن الزيات: التشوف لمذهب أهل التصوف (طبعة فاس - المغرب).
- ١٦ - ابن شاكر الكتبني: فوات الوفيات (مكتبة النهضة - القاهرة) ..
- ١٧ - ابن عباد الرندي: الرسائل الكبرى (طبعة فاس - المغرب ١٣٢٠ هجرية).
- ١٨ - ابن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم بشرح الحكم (طبعة القاهرة ١٣٣١ هجرية).
- ١٩ - ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مكتبة القدس ١٣٥٠ هجرية).
- ٢٠ - ابن عرببي (محب الدين): الفتوحات المكية (دار الكتب العربية - القاهرة) بتحقيق د. عثمان يحيى (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة).
- ٢١ - ابن كثير: البداية والنهاية (مطبعة السعادة - القاهرة - بدون تاريخ).

- ٢٢ - ابن منظور: لسان العرب، تصنیف: یوسف خیاط (دار لسان العرب - بيروت).
- ٢٣ - أبو ریان (محمد علی): أصول الفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهروردي (دار النہضة العربية - بيروت، الطبعة الثانية).
- ٢٤ - أبو نعیم الأصبهانی: حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء (دار الكتب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة).
- ٢٥ - بدوي (عبد الرحمن): أبو مدين وابن عربي (مقالة بالكتاب التذکاري لابن عربي - القاهرة ١٩٧٩).
- ٢٦ - البغدادي (إسماعيل): هدية العارفين (ملحق بكتاب: كشف الظنون - بيروت).
- ٢٧ - التفسازانی (أبو السوفا): ابن سبعين وفلسفته الصوفية (دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٣).
- ٢٨ - التبکتی: نیل الابتهاج بتطريز الديباچ، بهامش: الديباچ لابن فرحون (طبعۃ القاهرة ١٣٢٩ هجریة).
- ٢٩ - الذهبی (شمس الدين): سیر أعلام النبلاء، تحقیق: شعیب الأرناؤوط وأخرين (مؤسسة الرسالۃ - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١ هجریة).
- ٣٠ - الخوانساري: روضات الجنات في أخبار العلماء السادات، تحقیق: أسد الله إسماعیلیان (طهران ١٣٩٢ هجریة).
- ٣١ - خلیفة (حاجی): کشف الظنون عن أسامی الكتب والفنون (طبعۃ در سعادت - الهند، بدون تاریخ).
- ٣٢ - السبکی (تاج الدين): طبقات الشافعیة الكبرى (طبعۃ القاهرة، بدون تاریخ).

- ٣٢ - السراج السطوسي: اللمع في التصوف، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، طه عبد الباقى سرور (دار الكتب الحديقة - القاهرة ١٩٦٠).
- ٣٤ - السلمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية بعنایة: أحمد الشرباصي (كتاب الشعب - القاهرة ١٣٨٠ هجرية).
- ٣٥ - سليمان المطار: الشعر الصوفي في الأندلس (دار المعارف - القاهرة، الطبعة الأولى).
- ٣٦ - السودي اليمني: الديوان (مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية).
- ٣٧ - السخاوي: الضوء اللامع بتأیین القرن التاسع (طبعه بيروت).
- ٣٨ - السيوطي (جلال الدين): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (طبعة بولاق).
- ٣٩ - الشرجي: طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص (القاهرة - بدون تاريخ).
- ٤٠ - الششتري (أبو الحسن): الديوان، تحقيق: د. علي سامي النشار (منشأة المعارف - الإسكندرية ١٩٦٠).
- ٤١ - الشهزوري (شمس الدين): نزهة الأرواح وروضة الأفراح = تواریخ الحکماء، تحقيق د. عبد الكريم أبو شویرب (الجمعية العالمية لنشر الدعوة الإسلامية - ليبيا، تونس ١٩٨٩).
- ٤٢ - الشرقاوي (أحمد): شمس التحقيق وعروة أهل التوثيق (القاهرة - بدون تاريخ).
- ٤٣ - الصفدي: الوافي بالوفیات (طبعه مصر).
- ٤٤ - عبد الحليم محمود: أبو مدين الغوث (دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية).

- ٤٥ - العراقي (المحدث) : القرب في محبة العرب ، تحقيق: الشيخ إبراهيم حلمي القادري (نشرة عادل البهبي - الإسكندرية ١٣٨٠ هجرية).

٤٦ - العيدروس (عبد القادر) : تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر (اليمن - بدون تاريخ).

٤٧ - الغبريني : عنوان الدراسة فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة بسيجاشة (طبعة الجزائر ١٣٢٨ هجرية).

٤٨ - القشيري : الرسالة القشيرية في التصوف (طبعة البابي الحلبي - القاهرة، ١٣٧٩ هجرية).

٤٩ - الكلباني (أبو بكر) : التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق: محمود النواوي (مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، الطبعة الثانية).

٥٠ - كرنكوف: مقالة «اليافعي» بدائرة المعارف الإسلامية.

٥١ - كوربان (هنري) : شهاب الدين السهروردي (ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الإسلام - وكالة المطبوعات، الكويت - دار القلم ، بيروت).

٥٢ - كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين (طبعة بيروت).

٥٣ - مخلوف (حسنين) : مدحنة نبوية (طبعة على نفقة المؤلف ، القاهرة - بدون تاريخ).

٥٤ - مخلوف (حسنين) : القصيدة الوفائية (طبعة على نفقة المؤلف ، القاهرة - بدون تاريخ).

٥٥ - مخلوف (حسنين) : أوراد السادة الخلوتية (طبعة على نفقة المؤلف - بدون تاريخ).

٥٦ - مخلوف (حسنين) : صفحات ناصعة من حياة الإمامين أحمد بن شرقاوي، أحمد أبو الوفا الشرقاوي (طبعة على نفقة المؤلف - بدون تاريخ).

- ٥٧ - المقرى: نفح الطيب (طبعة القاهرة ١٣٥٧ هجرية).
- ٥٨ - المناوى (عبد الرؤوف): الكواكب الدرية في ترجمة الصوفية (مخطوط بدار الكتب المصرية).
- ٥٩ - ميرزا علي مدرس: ريحانة الأدب في ترجمة المعروفين بالكتيبة واللقب (تبريز - إيران).
- ٦٠ - الثايلسي (عبد الغنى): رد المفترى عن الطعن في الششتري، مخطوط القاهرة ٢٦٢ / تصوف - الإسكندرية ٥٠٣ / تصوف.
- ٦١ - المعارف الغيبية في شرح قصيدة النادرات العينية للجيلي، مخطوط (عدة نسخ بدار الكتب المصرية).
- ٦٢ - الياقعي (ابن أسعد): نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية (طبعة الببأى الحلبي - القاهرة ١٣٨١ هجرية).
- ٦٣ - ياقوت الحموي: معجم البلدان (دار صادر - بيروت).

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	الإهداء
٥	- مقدمة
٧	- سمنون المحب
١٤	- أبو علي الروذباري
٢١	- شهاب الدين السهروردي
٣٤	- أبو مدين الغوث
٤٥	- رشيد الدين بن خليفة
٥٢	- نجم الدين كبرى
٦٢	- أبو الحسن الششتري
٧٠	- نجم الدين بن إسرائيل
٧٨	- شهاب الدين بن الخيمي
٨٦	- ابن أسد اليافعي
٩٤	- برهان الدين بن زقاعة
١٠٤	- عبد الهادي السودي اليمني
١١١	- أبو الوفا الشرقاوي
١٢٠	- إبراهيم حلمي القادرى
١٢٧	- الخاتمة
١٣٧	- المصادر والمراجع
١٤٣	- فهرس الموضوعات

كتب الدكتور يوسف زيدان

- ١- المقدمة في الصوف، لأبي عبد الرحمن الشافعى (تقديم وتحقيق).
 - مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٧.
- ٢- عبد الكريم الجيلاني لفلسف الصوفية (تأليف).
 - الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨ - طبعة أولى.
 - دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ - طبعة ثانية.
- ٣- تصميدة التادرات البينية للجيلاني، مع شرح النابسى (تقديم وتحقيق).
 - دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨.
- ٤- الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلاني (تأليف).
 - دار النهضة العربية، بيروت - ١٩٨٨ - طبعة أولى.
 - مكتبة مدربولى، القاهرة، ١٩٩٢ - طبعة ثانية.
- ٥- شرح فصول أبقراءط، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
 - دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٨، طبعة أولى.
 - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٠ - طبعة ثانية.
- ٦- ديوان عبد القادر الجيلاني (دراسة - تحقيق).
 - مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٧- ديوان عفيف الدين التلمذانى (دراسة - تحقيق).
 - مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٠.
- ٨- شراء الصوفية المجهولون (تأليف).
 - مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١ - طبعة أولى.
- ٩- الطريق الصوفي، وفروع القادرية بمصر (تأليف).
 - دار الجيل، بيروت ١٩٩١.
- ١٠- عبد القادر الجيلاني، بار الله الأشهب (تأليف).
 - دار الجيل، بيروت ١٩٩١.
- ١١- رسالة الأعضاء، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
 - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩١.
- ١٢- المختصر في علم الحديث النبوى، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
 - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩١.
- ١٣- المختار من الأئمة، لابن النفيس (دراسة - تحقيق).
 - الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢.
- ١٤- شرح مشكلات الفتوحات المكية، للجيلاني (دراسة - تحقيق).
 - مؤسسة سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٢.

تحت الطبع:

- الكهف والرقيم، للجيلاني (تحقيق).
- شخصية الخضر في التراث الإسلامي (تأليف).
- دراسات صوفية (تأليف).
- التراث في الأدب المصري المعاصر (تأليف).
- الورقات في المنطق، لابن النفيس (تحقيق).
- شرح كليات القانون، لابن النفيس (تحقيق).